الغزو الثقافي
بين
الوسائل والغايات

بحث علمي مقدم من الدكتور
إمـــام رمضان إمـــام سعيد
أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد
كلية التربية / قسم الدراسات الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

طمعا فى بلوغ القصد ، وتحقيقا للغاية ، ووصلا للمنقطع ، بدأنا باسمه تعالى ، انطلاقا من عقيدة راسخة رسوخ الجبال الراسيات أن كل شئ يبدأ بغير اسمه تعالى فهو أبتر ،فتباركت وتعالت جل أسمائه ، لمن أحصى مجموعها كان الفوز بالجنان ، فإن ذكرته تعالى بإحدها منفردا فى خشوع قلب ودمعة عين فذاك من باب البشرى بظله يوم لا ظل إلا ظله ، منحة من الرحمن ، وأردف بعد ذكر اسمه الأعظم اسم نبيه محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذاك تمام نعمة الإيمان ، بكتابة شهادة الإسلام ؛ فإن كنت ذو كرم ذكرت بعد ذكر الحبيب الهادى صحابته رضوان الله عليهم ـ بالسلام ـ ، فذاك منك حبا للمحبوب والمحب،الذى ألف بين قلوب أحبته فى الله تحت راية التوحيد ، التى وأدت الشرك ، وقضت على كل مظاهرالعنصرية ، أذابت الأعربى فى الأعجمى،الفارسى والرومانى والحبشى ، فى القريشى فى العربى ،هوية واحدة ، قومية واحدة ، عقيدة واحدة ، ثقافات متعددة ، غايات واحدة ، لتتجلى معالم الوصل بين أبناء الرحم الإنسانية، فى وحدة الصفوف وحدة طوعية، رافعة قدرأمة أمية وثنية ، إلى مصاف خيرأمة أخرجت للناس بديانة إسلامية، عالمية، لكل أمم وشعوب الأرض قاطبة، شرقية كانت أوغربية

ثم أما بعد

مقدمة البحث :

فى زمن كثرالكلام فيه إرسالا واسترسالا ، لغوا كان أو استحسانا، تجد كثيرا من بين الكثير يقال فى وسائل الإعلام المختلفة ، سواء أكانت سمعية كالإذاعة ، أوقارنة بين السمع والبصر كالتلفاز، أوحتى المقروء منها كالصحف والمجلات : أننا نعيش فى ظل عالم كونى جعلت منه ثورة الاتصالات ـ خاصة مع وجود الشبكة العنكبوتية الإنترنت ـ قرية واحدة صغيرة ، مما يعنى السرعة الفائقة فى انتقال وتداول المعلومات ، بكل صورها ، وشتى أنواعها العلمية والاقتصادية والسياسية ، الأدبية والفنية والرياضية ...الخ ، تِلْكُمُ المعلومات المتدفقة تدفق سَيْلِ العَرِمِ آناء الليل وأطراف النهار؛ لايفعلها ولا ينفعل بها ـ عقلا وقلبا ـ إلا ذلك الكائن الفريد المسمى بالإنسان، فبها يتواصل مع بنى جنسه ، وبها يتحقق وَعْيُهُ بمحيطه الكونى ، وبها ومن خلالها تنمو الذاتية وتتشكل الهوية ؛ وعلى إثر ذلك كله تتكون العقيدة ، تتكون

العقيدة بمفهومها الدينى، كما تتكون العقيدة بمفهومها الفكرى، فالأولى مجالها : الإلهيات والنبوات والسمعيات ، من خلال وحى حمل إلى البشرية رسالة من الخالق إلى المخلوق تضمنتها كتبه المقدسة ـ التوراة والإنجيل والقرآن ؛ والثانية : مجالها علوم الاكتساب ، نظرية وعملية ، من خلال العقل والتجريب ، من خلال العلم ، من خلال التعليم والتعلم ؛ ثم يُصهرمجموع كل هذا الكم بفعل منهجى من أفاعيل العقل البشرى فى بَوْتَقَةٍ واحدة ليُشَكِّلَ فى نهاية الأمرمايُعرَفُ باسم الثقافة ، تِلْكُمُ الثقافة التى نصنعها تارة وتصنعنا هى تارة أخرى، نوجهها تارة، وتوجهنا هى تارة أخرى وفق نظريات التأثيروالتاثر، التعليم والتعلم ، المثير والاستجابة .

والسؤال أوالتساؤلات التى لاتبرح موضعها وسط بحوث الدراسات الثقافية المختلفة هى :

- متى يكون القطيع البشرى صانعا للثقافة ؟ ومتى يكون القطيع صناعة الثقافة ؟
- متى يكون القطيع البشرى مؤثرا بثقافته ؟ ومتى يكون هوالمتأثر بثقافة الآخرين ؟
- متى يكون القطيع البشرى غازيا بثقافته ؟ ومتى يكون القطيع محتلا بثقافة الآخرين ؟
- متى تكون الثقافة ثقافة بناء ؟ ومتى تكون الثقافة ثقافة هدم ؟

والحق أقول: إننا ككقطيع بشرى ينتمى عقائديا إلى الدين الإسلامى، فهذا يعنى ـ من جهة ـ أن الانتماء المكانى لاينفك عن الانتماء العقائدى ، إذ وفق عالمية الديانة الإسلامية ؛ نحن ننتمى إلى العالم كله شرقه وغربه ، شماله وجنوبه ، أما الإنتماء إلى العرب والعربية ، فهو ـ من جهة ثانية ـ من قبيل الانتماء إلى اللغة ، من قبيل الانتماء إلى وطن هو محل الميلاد ، هومحل السكن وإقامة الجسد ؛ هكذا يجب أن تكون ثقافة الإنتماء عندنا ؛ فإن كنت ممن خبر الواقع ، فأنت ولاشك ممن خبر خبر هذا القطيع الإسلامى الآن ، إذ هذا القطيع البشرى الإسلامى سواء أكان منتشرا فى كل أرجاء المعمورة وشتى بقاع العالم؛ أو متقوقعا فى المنطقة العربية ، نجده وفقا لكل المعايير الحاكمة فى مضمار البحوث الثقافية المعاصرة من مُستهلكى ثقافة الآخر لا مِنْ مُنتِجيها، هو من المتأثرين بثقافة الآخرلا من المُؤثرين فيها، وهذا

يعنى غزوالعقل، غزو القلب والوجدان ، غزو المعتقد ؛ سواء أكان المعتقد دينيا أو فكريا.

فما الوسائل التى استخدمها الآخر لا ليغزونا فقط ؛ وإنما ليُحبب إلينا الغزو، حتى بتنا نلهث خلفه، ساعين إليه بكد وجهد كسعى المحب إلى محبوبه ، والعاشق إلى معشوقه ، إن أبطأت خطاه نحوحصوننا الهشة ، وثقافتنا الضحلة ؟ وما الغايات التى لأجلها كنا قبلته ، وكنا ولازلنا أسمن وأثمن فريساته ؟

كيف يقتحم العقول والقلوب ؛ وكيف يرسخ أقدامه داخلها ؟

كيف ينتقل من نجاح إلى نجاح فى كل غزواته ؛ حتى دان به ودان له الجميع ؟

وما الفئة العمرية الأكثر استهدافا من هذا الغزو ولماذا ؟

وما هى الآليات التى يجب توافرها لمجابهة هذا الغزو ؟ إن كنا نريد حقا مجابهته.

وهل هى متاحة بين أيدينا ؟ أم لا تزال فى حاجة إلى البحث والتنقيب عنها ؟

وما الآثارالتى ترتبت على هذا الغزو؟ وما الآثار المترتبة عليه إن ظل أمره هاكذا ،

فى تمدد من جيل إلى جيل؛ من الماضى إلى الحاضر؛ ومن الحاضر إلى المستقبل ؟

إن الإجابة عن جملة هذه التساؤلات لا تتأتى لنا إلا من خلال الوقوف على طرق وآليات الغزو الثقافى وصوره المتمثلة فى قاعدة ارتكاز دونها لايستقيم له بنيانا ولا يسمع لهم صوتا ولا تقوم لهم قائمة ، إنها قاعدة الغزوات العسكرية المسلحة التى تنطلق منها وبها مخططات الغزو والاستعمار بكل صوره وأشكاله والتى يمكن حصرها فى الأنواع التالية :

أولا :الغزو العلمى ـ طرقه وغاياته .

ثانيا : الغزو السياسى والاقتصادى ـ الطرق والغايات .

ثالثا : الغزو الدينى ـ طرقه وغاياته .

رابعا : الغزو الأدبى والفنى ـ الطرق والغايات .

وما عليك إلا أن تتأمل مجموع ما سبق ذكره ليتبين لك أنه يمثل جوهر الثقافة الإنسانية المعاصرة ؛ ذلك وفقا لتعريفات ومفاهيم الثقافات المتعددة التى نعرض لها فى سياق البحث؛ الذى ما كان له أن يتناول تلك الموضوعات سالفة الذكر وفق منهج استقرائى استقصائى فى صحبة المنهج المقارن ، مقارنة لاتخلو من النقد واستنباط

النتائج ، دون أن أضع أمام القارئ نبذة عن مفهوم الغزو، ومفاهيم الثقافة التى هى من الكثرة بحيث لايمكن بأى حال من الأحوال أن تُجمَع لا فى بحث واحد، ولا فى مجلد واحد من مجلدات الأحجام الكبيرة، وإنما هى فى حاجة إلى عدد من مثل هذه المجلدات التى امتلأت بها أرفف المكتبات لِسَبْرِ جميع أغوارها .

ويبقى القول بأن الغاية التى ننشد الوصول إليها هنا ليست هى الحكم المطلق على كل ألوان الثقافات التى غزت بلادنا وعقولنا ، وجاهدت وثابرت حتى مكنت وتمكنت من فرض محتواها على عقول سواد الأمة وقلوبها ، شيبة وشبابا ، ذكورا وإناثا ، وإنما تتطلب الأمانة العلمية منا أن نضع بين يدي القارئ ـ قدر المستطاع ـ ميزانا توزن به ثقافة البناء فى مقابل ثقافة الهدم ، ثقافة العلم فى مقابل ثقافة الجهل، ثقافة الحرية فى مقابل ثقافة التبعية والعبودية ، ثقافة الإيمان فى مقابل ثقافة الإلحاد، ثقافة العزة والكرامة فى مقابل ثقافة الذلة والمهانة ؛ سواء أَصُنِعَتْ هذه الثقافات بأيدى الآخرين؛ أو صنعتها ـ توهما ـ أيادينا نحن تواطئا .

ولعل كلماتى هذه ما هى إلا صدى صوت لمقولة أستاذ الأدب الإنجليزى بجامعة أكسفورد ، وأستاذ النظرية الثقافية بجامعة منشستر تيرى إيجلتون :١٩٩٢ـ ٢٠٠١ـ فى كتابه فكرة الثقافة " إن الصدام بين الثقافة العليا والثقافة المحلية صراع كوكبى . إنه مسألة سياسية فعلية وليس مجرد مسائل أكاديمية .. إنها جزء من صيغة سياسات العالم فى الألفية الجديدة "

فكرة الثقافة ـ ص١١

والله من وراء القصد ؛ هو نعم المولى ونعم النصير .

ثقافة الكلمة واللغة :

تسعة وعشرون حرفا هى مجموع أحرف الهجاء فى لغتنا العربية تبدأ بحرف الألف لتنتهى بحرف الياء ، ما بين حرفها الأول وحرفها الأخير من السعة ، كما بين الأرض والسماء ، إذ من الحروف تنسج الأسماء ، كما تنسج الأفعال ،تارة كتابة بالأقلام ، وتارة نطقا بالسان على منوال الكلام ، نثرا كان أوشعرا ؛ وقديما قال ابن مالك فى ألفيته :

" **كلامنا لفظ مفيد كاستقم واسم وفعل ثم حرف الكلم** "[١]

وفى التنزيل : " وعلم آدم الأسماء كلها "[٢] ، وفى التفسير : " أنه ـ تعالى ـ علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها "[٣] ، وبما أن العلوم على ضربين كما قال أبن حيان ـ فى رسالة الحدود والرسوم ـ " ضرب هو علم الدين ، وضرب هو علم الدنيا ، فكان علم الدين منها منقسما إلى قسمين : شرعيا وعقليا ؛ وكان العلم العقلى منها منقسما إلى قسمين : علم الحروف وعلم المعانى "[٤] ، فما كان لآدم أن يتعلم علم الأسماء دون حروف ، دون كلام منطوق ، بلغة دالة على المعنى والقصد، قارعة قوى الإدراك والفهم فى العقل ، سواء أكان المتكلم متلقيا العلم من الله ـ كآدم ـ أو معلما، بتكليف من الله أيضا ، كـ ـ آدم ـ" قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم" [٥] ؛ فهاهنا عَالم وعلم، معلم ومتعلم؛ الرابط بين أطراف مجموعهم الموضوع الذى هو اللغة .
وما عليك إلا أن تعلم ـ كما يقول ابن خلدون فى مقدمته ـ :" إن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هى ملكات فى اللسان للعبارة عن المعانى وجودتها وتصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها ، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات ، وإنما هوبالنظر إلى التراكيب"[٦] .
تلك التراكيب هى عينها التى تصور الموضوع فى قالب من الكلمات التى يحكمها ويتحكم فيها العقل بملكة الفكر ، وقد قيل بـ : " أن الألفاظ حصون الفكر ، وبالتالى فلا وجود للفكر من دون اللغة ، لأن الكلمة أداة للتفكير فى المعنى الذى تعبر عنه"[٧].
وليس أدل على ذلك مما تجده فى الآناجيل من تعدد للفظ ـ الكلمة ـ ، حروفها واحدة ، لاتبديل فيها ولا تغيير ، لكن مفومها يختلف باختلاف موضوعها ، من حيث التقديم

والتأخير ، تنطق بذلك صراحة افتتاحية إنجيل يوحنا بالآيات القائلة : " فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله "[٨] .

فذكر لفظ الكلمة فى الآيات ثلاث مرات متتالية ليس من باب التوكيد اللفظى ، وإنما هو من باب تعدد موضوعات لفظ الكلمة ذاته ، بما يتناسب مع معتقدهم الدينى فى التلثيث ، الله الآب ـ الله الابن ـ الله الروح القدس ـ تلكم آلهة ثلاثة ، كل منهم ترمز إليه كلمة ، لتبقى كل كلمة من الكلمات الثلاث موضوعا قائما بذاته ، وإن همو عمدوا إلى التأويل بقولهم إنهم موضوع واحد فى ثلاثة ، مع بقاء الثلاثة فى الواحد، وفق منطوق الإيمان عندهم ، توحيد فى تثليث ، وتثليث فى توحيد ، واحد هو ثلاثة ، وثلاثة هم واحد ؛ تظل إشكالية التعدد فى معتقدهم قائمة دون أن تحسم ، لاعقلا ولا نقل ، بسبب تعدد مفاهيم لفظ ـ الكلمة ـ .

من هنا تتجلى أمام العقل رابط اللغة بالموضوع ، إذ هى وفقا لما جاء فى كتاب ـ اللغة والتفسير والتواصل ـ :"علاقة حقيقية ، ذلك أننا نختار كلمة معينة دون كلمات أخرى ، ونحيل أيضا كلمة على كلمات. ومعنى ذلك أننا نتعامل مع نظام واسع لايمكن تجنبه " [٩] .

سعة عدد أحرف لغته ، سعة ما تنسجه تلك الحروف من كلمات ، سعة ما تعبر عنه الكلمات من معان ، طبيعية كانت أو فوق الطبيعية .

وإذ يظل التنزيل هاديا للعقل فى محارب العلوم ، فإنه ينطلق بنا من محراب اللغة ، لغة العرب العربية ، التى هى لغة القرآن " إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون"[١٠]، لنعقل آية من آياته فى لغات الآخرين " ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين "[١١] ، كما وفى السنة جاء قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حديث زيد بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ قال: "أمرنى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن أتعلم له كلمات من كتاب يهود ـ قال: إنى والله ما آمن يهود على كتاب ـ قال: فما مر بى نصف شهر حتى تعلمته له ـ قال : فلما تعلمته كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم وإذا كتبوا إليه قرأت له كتابهم"[١٢]. تلكم الدعوة النبوية بتعلم لغة الآخر لهى من باب "من تعلم لغة قوم أمن مكرهم" ؛ إذ من اللغة تفهم المعانى والمقاصد ، وهو عين المفهوم الذى تبنته النظريات المعرفية فى دوافع تعلم اللغات كالنظرية الجشطلطية والنظرية البنائية ونظرية التعلم الاجتماعى والتعلم بالملاحظة ، كل هذه النظريات التربوية وإن

اختلفت فيما بينها حول طرق الدراسة والتعلم إلا أن جميع "هذه النظريات يجمع بينها قاسم مشترك واحد على الاقل ، فهى تحاول ـ كل بطريقته الخاصة ـ الإعلان عن سلسلة من المبادئ التى يتعلم بها الناس بوجه عام" (١٣) .

حيث جاءت وجهة نظر هذه النظريات المعرفية تقول :"إن كل إنسان يتعلم اللغة لا لأن الجميع يخضعون لعمليات أشراط متشابهة ، بل لأن كل انسان يمتلك قدرة فطرية تسمح له بتعلم اللغة وهذه القدرة عامة بطبيعتها ، بمعنى أنها تنطبق على جميع البشر، فى كل زمان ومكان،..ومن ثم كانت اللغة عند علماء التعلم المعرفى شكل من أشكال السلوك المعقد، لايمكن أن نفسره بالاعتماد على المؤثرات الخارجية فحسب ، ...من أجل ذلك اهتم أصحاب النظريات المعرفية بقضية معانى الكلمات والعبارات والجمل فى التعلم ،.وذهبوا ـ أيضا ـ إلى أن تعلم اللغات الأجنبية لابد من أن يكون نشاطا قائما على الفهم الدائم ، فالفهم مهما اختلفت طرائق التدريس يظل العنصر الرئيس الهام فى تعلم اللغة سواء أكانت لغة الأم أم اللغة اللأجنبية" (١٤) . فإذا ماكان العالم الإنسانى يزخر بآلاف اللغات ، وفقا لإحصاء ـ قاموس التنمية ـ تقدرفى الوقت الراهن بـ " حوالى ٥١٠٠ لغة يتحدث بها الناس فى أنحاء المعمورة ، وما يقل عن ٩٩% منها لغات محلية أسيوية وإفريقية، ومن منطقة المحيط الهادى والأمريكتين ، أما الواحد بالمائة الباقى فموطنه أوروبا ، وقد تم إحصاء أكثرمن ٤٠٠ لغة فى نيجيريا وحدها، وفى الهند ١٦٨٣ لغة، بل إن أمريكا الوسطى، رغم صغر حجمها الشديد من الناحية الجغرافيا، تتباهى بأن بها ٢٦٠ لغة"(١٥) .ولست أدرى أى ثقافة عند هؤلاء تدعوهم للتباهى بكثرة عدد اللغات فى البلد الواحد ، حتى وإن كانت لغات محلية غير اللغة الأم ، فليست الكثرة فى كل الأشياء ذات نفع للإنسان ، خاصة إذا ماكانت فى اللغات بين أبناء الشعب الواحد ، لأن التواصل بينهم لن يكون أبدا على قدم المساوة كما لو كانت اللغة التى تجمعهم واحدة ، بل على العكس،هى ذات دلالة على الاختلاف والخلاف والتشرذم .

ولأننا نسعى من خلال الكلمة إلى فهم العقل للموضوع والمعنى،لا مجرد الوقوف على ظاهر الكلام، فإن دلالة ذكرعدد لغات البشر لهى من الأهمية بمكان،إذا ما علمت أن اللغة ـ أيا كانت ـ هى الوعاء الحاوى لكل ثقافات البشر، فكما جاء فى كتاب ـ الثقافة العربية وعصر المعلومات ـ للدكتور/ نبيل على :" وثقافة كل أمة كامنة فى لغتها ، كامنة فى معاجمها ونحوها ونصوصها. واللغة ـ بلا منازع ـ أبرز

السمات الثقافية، وما من حضارة إنسانية إلا وصاحبتها نهضة لغوية . وما من صراع بشرى ، إلا ويبطن فى جوفه صراعا لغويا ، حتى قيل إنه يمكن صياغة تاريخ البشرية على أساس من صراعاتها اللغوية"[١٦] .

فإذا ما أضفت إلى مفهوم هذه الرؤية الثقافية رؤية ـ ساكس ـ الواردة فى قاموس التنمية ، والتى يقول فيها :" تنقرض اللغات بسرعة مثل الأنواع .ومع أنه فى حالة الأنواع تختفى النباتات والحيوانات من التاريخ الطبيعى ولا ترى مرة أخرى ، فإنه بموت اللغات تختفى الثقافات بكاملها من تاريخ الحضارة ، ولا تعش مرة أخرى أبدا .. فما أن تنقرض اللغات حتى تتداعى الثقافات " [١٧] . ولا يكتفى ـ ساكس ـ بهذا الكلمات المعبرة تعبيرا فيه نظر ، حيث نهضت بعض اللغات من تحت الرماد بعد طول غياب لتحدث فى المجتمع الإنسانى كله ثورة ثقافية من نوع جديد قوامها الأساسى اللغة العبرية والتوراة ، إنها الثقافة اليهودية الصهيونية التى هى فى واقعنا المعاصر أعرف من أن تعرف،وأظهر من أن تنكر؛أضف إلى ذلك أن من اللغات من ماتت ، لكن الحضارة والثقافة التى خلفتها لم تمت ، إذ من معينها لازال ينهل العالم ، تلكم هى اللغة المصرية القديمة المسماة باللغة الهيروغليفية ، التى يتواصل بها الأحفاد من ورثتها مع الأجداد ،علما بأنها كانت لغة كتابة ،لا لغة نطق وكلام . وبالعودة إلى ساكس نجده يختتم حديثه بمقولة أظنها صرخة نصح من لسان أعجمى للسان عربى عجز عن إدراك جوهر النعمة الإلهية فى لغته الواحدة ، اللغة العربية التى تجمع اللسان العربى فى محيط شاسع من الكلمات والمعانى ، لكنها ـ مع ما بنا من أسف شديد ـ باتت تسحق ، رسما ومعنا ، كتابة ونطقا ، علما وجهلا، إذ يقول ساكس:"ومع ذلك فإن موت اللغات ليس سوى أوضح إشارات التبخرالذى يحدث فى العالم أجمع للثقافات "[١٨] .

وبما أننا نقف وجها لوجه أمام كم هائل من اللغات الإنسانية ، فنحن بالضرورة أمام كم مماثل من الثقافات ، ذلك القول نتاج قضية عقلية منطقية من الشكل الأول ، إذ نقول :

العالم يمتلأ باللغات وكل اللغات ثقافات ـ النتيجة بعد حذف الحد الأوسط فى المقدمتين ـ هى العالم يمتلأ بالثقافات ؛ وكل ثقافة من تلك الثقافات تضع لنفسها تعريفها الخاص الذى يدل دلالة مطابقية، أوتضامنية على جوهرها ؛ بيد أن من هذه الثقافات من لايغادرموضعه،وهى الثقافات المحلية،ومنها الثقافات التى تغادر

موطنها،عابرة للحدود الجغرافية والزمانية ، فى رحلة ترمى من خلالها إلى غزو عقول الآخرين غزوا ثقافيا مصطبغا بألوانها البرجماتية الخاصة تحت مسمى الثقافة العالمية ، تلكمو الثقافة العالمية هى وحدها التى تقوم بوضع وصياغة التعاريف الثقافية .

مفهوم الثقافة لغة واصطلاحا :

ذكرنا أن اللغة ليست مجرد الكلام المتلفظ به ، وإنما الكلام يكتب أو ينطق للدلالة على المعانى فى قالبها الموضوعى ، وكلمة ثقافة إذا ما ذكرت مفردة دلت على معان عدة ، كما وأنها إذا ذكرت بالإضافة لم تخلو كذلك من تعدد الموضوع بتعدد المضاف إليها ، نجد ذلك ليس فى لغتنا العربية فحسب ، بل وفى اللغات الأخرى . من هنا تأتى أهمية التعريف بالكلمة من جهة اللغة ، والتعريف بها من جهة الموضوع أوالاصطلاح .

أولا ـ المفهوم اللغوى للثقافة :

تناولت معاجم اللغة العربية فى مجموعها كلمة ـ ثقافة ـ من حيث حروفها الأصلية وما يشتق منها من معنان ، ففى معجم مقاييس اللغة : ـ ثقف ـ الثاء والقاف والفاء ، كلمة واحدة إليها يرجع الفروع ، هو : إقامة درء الشيء، ويقال ثقفت القناة ، إذا أقمت عوجها ، وثقف هذا الكلام من فلان ، ورجل ثقف لقف ، وذلك أن يصيب علم مايسمعه على استواء. وفى القاموس المحيط : ثقف ثقفا وثقافة : صار حاذقا خفيفا فطنا ، وثقفه ، كسمعه : صادفه ، أو أخذه ، أوظفر به ، أو أدركه ؛ وثقفه تثقيفا :سواه. وثاقفه فثقفته ، كنصره : غالبه فغلبه فى الحذق . وفى لسان العرب : يقال ثقف الشيء وهو سرعة التعلم ، وثقفت الشيء حذقته ، وثقفته إذ ظفرت به ، لقوله تعالى :" فإما تثقفنهم فى الحرب" ـ الأنفال/ ٥٧... وهو غلام ثقف ثقيف : أى ذوفطنة وذكاء ، والمراد منه أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه ؛ وثقفن فلانا فى موضع كذا ، أى أخذانه ، وفى التنزيل " واقتلوهم حيث ثقفتموهم " ـ البقرة /١٩١..والثقاف والثقافة ، العمل بالسف . وفى الصحاح : ثقف الرجل من باب ظرف صار حاذقا خفيفا فهو ثقف ، ومنه المثاقفة ، والثقاف ما تسوى به الرماح .وتثقيفها تسويتها ، وثقفه من باب فهم صادفه . وفى المصباح المنير : ثقفت الشيء ثقفا من باب تعب أخذته ، وثقفت الرجل فى الحرب أدركته ، وثقفته ظفرت به ، وثقفت الحديث فهمته بسرعة ، والفاعل ثقيف ، وبه سمى حى من اليمن ، والنسبة

إليه ثقفى بفتحتين ، وثقفته بالتثقيل أقمت المعوج منه . وأخير جاء فى المعجم الوجيز: ثقف فلانا ثقافة : صار حذقا فطنا ، وثقف الشيء أقام المعوج منه وسواه . والإنسان :أدبه وهذبه وعلمه . وتثقف:تعلم وتهذب ويقال فلان تثقف على فلان ، وتثقف فى مدرسة كذا، والثقافة :العلوم والمعارف والفنون التى يطلب العلم بها ، والحذق فيها "[١٩] .

فإذا ما انتقلنا إلى مفهوم كلمة الثقافة ودلالاتها فى غير اللغة العربية وجدنا بداية ما جاء فى كتاب ـ ملاحظات حول تعريف الثقافة ـ حيث يقول مؤلفه :" إن تاريخ كلمة الثقافة، باعتبارها دالة على شيء يقصد إليه قصدا واعيا فى أمور البشر ليس بالتاريخ الطويل" [٢٠]

مما يعنى أن الكلمة ستكون من الكلمات النادرة التى لم يرجعها الباحثون واللغويون إلى أصول اللغة اليونانية كما اعتادوا عند بحثهم لكل مصطلح من مصطلحات الفكر العقلى . ولعل هذا ما أكده الدكتور مراد وهبة فى معجمه الفلسفى، حيث يقول حول كلمة ـ ثقافة ـ :الكلمة الأفرنجية ليست واردة عند اليونان .. وقد جرى على الكلمة الأفرنجية ما جرى على الكلمة العربية، فالكلمة الأفرنجية يرجع أصلها إلى الفعل اللاتينى COLERE وهى يعنى فعل الزراعة ؛ وهذا ما أكده تيرى إجليتون فى كتابه ـ فكرة الثقافة ـ بقوله : الجذر اللاتينى لكلمة ثقافة .CUITURE هويفلح COLERE، والذى يمكن أن يعنى أى شيء ابتداء من حراثة وزراعة الأرض ، إلى السكن والعبادة والحماية ، وتطور معناها من ـ يسكن ـ أو ـ يستوطن ـ ، وهو باللاتينية COTOUNS إلى الكلمة المعاصرة استعمار COLONIALISM والتى يمكن ترجمتها إلى استعمار استيطانى ، ولهذا فإن عناوين مثل الثقافة والاستعمار CULTURE AND COLONIALIS هى ضرب من الحشو . ولكن كلمة COLERE اللاتينية ينتهى بها المطاف لتصبح CULTUS شأن المصطلح الدينى CULT ، وتعنى عبادة أو دين أو عقيدة ، تماما مثل فكرة الثقافة نفسها فى عصرنا الحديث التى حلت بديلا عن معنى ـ آفل ـ للدلالة عن الألوهية والتعالى . وجدير بالذكر هنا ـ كما يقول ـ إجليوتن ـ أن الحقائق الثقافة تبدو أحيانا حقائق ذات قدسية ويتعين حمايتها وتوقيرها. وهكذا ورثت الثقافة الغطاء المهيب للسلطة الدينية ، ولكن لها انتماءات ونسب ممجوج إلى الاحتلال والغزو"[٢١]. وعند شيشرون قيل ثقافة النفس CULTURA ANIMI أى تربية النفس والعقل ، ثم امتدت فى القرن السابع عشر إلى الإنسان من حيث هو

كائن يحيا فى مجتمع ، ثم امتدت إلى المجال الفلسفى فى القرن التاسع عشر ؛... ولقد وردت كلمة ـ ثقافة ـ كصفة فى قاموس أكسفورد١٨٧٥ـ فقيل نمو ثقافى ،ثم استخدمها ماثيوأرنولد كاسم ١٨٧٦فقال إن الثقافة تعود أنفسنا على اقتناص أحسن المعارف ؛ أما فى اللغة الفرنسية فكلمة ثقافة فى أصلها تعنى العبادة CULTE ثم أصيحت تعنى عبادة الأرض . وفى قاموس الأكاديمية الفرنسية ١٧٦٢الثقافة هى الاهتمام بالفنون وبالروح"[٢٢].

وخلاصة ما ورد من تعريفات يشير إلى أن المفهوم اللغوى لكلمة ـ الثقافة ـ وما يشتق منها ، وفقا لما قدمته لنا معاجم اللغة ، سواء أكانت المعاجم العربية ، أو بعض المعاجم الغربية ، يدور فى فلك المعانى التالية : أ ـ الحذق والفطانة والذكاء ـ ب ـ الظفر والأخذ والإصابة ـ جـ ـ الإصلاح والتقويم والتسوية ـ د ـ التعليم والفهم والتهذيب .

فإذا أضفنا إلى هذه المفاهيم العربية،المفاهيم الخاصة بالكلمة فى اللغات الأجنبية،وكيف أنها مشتقة من فعل الزراعة ، والتربية ، والعبادة ، وعبادة الأرض ـ سواء أكانت العبادة بالمعنى المقدس أو بمعنى الإصلاح ـ ، وجدنا المقاربة بين المفهومين قد تصل بنا إلى درجة المطابقة ، فكل المعانى العربية إنما تغرس فى النفوس والعقول غرسا لتربيتها كما تغرس البذور فى الأرض ، طمعا فى أجيال جديدة قوية قادرة على النهوض بالأمة ودفعها دفعا نحو الأمام ، على اعتبارأنهم ثمار الثقافة التى تقارب ثمارالأرض، فإن صلحت الأخيرة، صلح بصلاحها النبت الذى هو البنيان المادى ، وإن صلحت الأولى ، صلح بصلاحها البنيان النفسى والعقلى و الوجدانى، وبصلاحهما معا تظفرالأمة كلها بأجيال من البنائين ، أصحاب علم وفهم وفطانة ، أصحاب طهر ونماء وذكاء وضاء ، تسدد وتقارب بين دعوة أرض ورسالة سماء ، بين ثقافة هدم وثقافة بناء ؛ ويبقى فسادهما أوإفسادهما ، فسادا للأجيال ، يقود الأمة ـ بالقياس إلى أضادها ـ ، إلى الجهل ، إلى التبعية والتخلف ، إلى التدنى والإنحطاط ، إلى الانحصاروالزوال.

المفهوم الاصطلاحى للثقافة:

ليست هذه هى المرة الأولى التى أبحث فيها مفهوم الثقافة من حيث الاصطلاح ، فلقد سبق أن تناولت هذا المفهوم فى بحث بعنوان ـ العولمة الفنية وإعادة تشيكل منظومة الثقافة الإسلامية ـ واعترف أنه وبعد مرور قرابة العقد ونصف العقد من الزمان أن

التغير السريع الذى طال كل مناحى الحياة قد طال أيضا البحث فى المفاهيم الاصطلاحية للثقافة عند كل الباحثين المعنيين بالدراسات الثقافية على مستوى العالم كله ، علما بأنه قد تراءى لى من قبل أن :"الكائن البشرى يمتلك وحده وبحكم طبيعته دون غيره من الكائنات الحية قدرات هائلة على إحداث وإثارة المشكلات ،ثم يعكف على دراستها وبحث ماهيتها من خلال جملة من التساؤلات، والحال مع بحث مفهوم الثقافة الإنسانية قد بلغ مبلغا يفوق وصف الكلمات فى المجتمعات الإنسانية الحديثة والمعاصرة ، إذ التساؤلات الحائرة التى يطرحها العقل الإنسانى فى هذا المضمار ويتصدى لها بالإجابة فى آن واحد ، قد ألقت بالعقل فى غياهب سحيقة من الشك والتردد والحيرة؛ كل هذا مرجعه إلى وحدة السؤال عن ماهى الثقافة ؟ والذى تبعه ألف جواب وجواب "[٢٣]

وإن نظرة واحدة على كم المقالات والبحوث والكتب والمجلدات التى اتخذت من الثقافة عنوانا لها ليجعل من مصداقية القول السابق مصداقية بدهية لكل من له علاقة بعالم الكتب أوالقراءة ، فهل هذا الكم يحمل لنا بالفعل دلالات التنوع والاختلاف ، أم هناك دلالات أخرى خافية على مستهلكى ثقافة الغير ؟ أم يمكن أن نأخذ مأخذ الجد قول ـ مرجريت ميد ـ تلك الباحثة الغربية المتخصصة فى دراسة أنماط الحياة فى الشعوب القديمة ، من أنه :" لاتوجد عبر القرون وحدة وزن للثقافة "[٢٤] ، وهو قول يكاد يكون متناقضا مع الرأى القائل بـ :"أنه لم تظهر ثقافة ولا نمت إلا بجانب دين، ومن هنا تبدوالثقافة نتيجة من نتائج الدين ، أو الدين نتيجة من نتائج الثقافة ، طبقا لوجهة نظرالنظر "[٢٥].

وهنا نتساءل ماذا عن ثقافة جموع الملحدين رافضى الدين جملة وتفصيلا، خاصة أولئك الذين ربوا ورتعوا فى البلدان الإسلامية تحت مظلات ومنظمات ومسميات شتى، بعضها دولى والبعض الآخرمحلى ، شعاراتهم : الحرية ، التقدمية ، التنويرية، العلمانية ،...الخ ، فهل يمكن لهؤلاء قبول تعريف الثقافة من منطلق دينى؟

والحق أننا لاننتظر إجابة منهم ، سواء أكانت إيجابا أو سلبا ، وما ذلك إلا لأن الأمر لن يقف بنا أبدا عند مجرد تبنى تعريفا للثقافة فى ضوء العقيدة الدينية ، إذ مثل هذا التعريف إن وجد ، فسيكون بمثابة قيد على ما لا قيد له ، إن الثقافة متغير دائم فى ظل عصر العلوم ، وحسبنا ما ذكره ـ مايك كرانغ ـ الأستاذ بجامعة دورهايم فى بريطانيا ـ فى كتابه ـ الجغرفيا الثقافية ـ من أنه :" فى نهاية الخمسينيات ـ من القرن

الماضى ـ استطاع المؤلفون أن يجمعوا أكثر من ١٥٠تعريفا مختلفا للثقافة قيد الاستعمال فى الكتب الأكاديمية " [٢٦]

وبما أننا قد تجاوزنا هذا التاريخ بما يزيد على النصف قرن ، كان هو الأسرع فى تاريخ البشرية من ناحية التغيرات الجذرية فى السواد الأكبر من معتركات الحياة ، مم يعنى زيادة رقعة التعريفات بما يتلاءم مع تلك المتغيرات العصرية ؛ وربما كان هذا هو السبب الذى جعل مؤلفو كتاب ـ نظرية فى الثقافة ـ يذكرون فى مقدمته : أنه ليس فى نيتهم إغراق القارئ فى تعريفات الثقافة التى لاحصرلها دون أن يتحقق اتفاق حولها بين الباحثين"[٢٧] والحق ما قالوا، ليس وفقا لظنهم ، وإنما وفقا لرؤية عقلية تقول إن مثل هذا الاتفاق لن يتحقق أبدا بين باحثى الثقافة ، لأنه أحد أهم أدوات الغزو الثقافى التى يمارسها صناعها بحرفية عالية لتحقق بين الدارسين المستهلكين لثقافة الآخر حالات من القلق والحيرة والتردد فى دوافع اختيارهم لتعريف دون آخر، وتبنيهم لمنهج دون منهج الأخرى، واعتناقهم لمذهب ثقافى دون آخر، مما يسهم وبشكل قطعى فى زيادة إنشاء حلابات للمصارعات العقلية العنيفة ، من أجل إقامة مباريات فى المناقشات الجدلية المتدثرة بعباءة الثقافة والمعروف نتائجها مسبقا ، إذ هى دائما تنتهى إلى اللاشيء ، اللهم إلى المزيد من الانقسام ،المزيد من التحزب ، المزيد من الخلاف والاختلاف حول منتج صنعه الغيرلنا ، لامنتج أنتجناه نحن لأنفسنا. ومع ما ذكرناه هنا ، وما ذكروه أيضا ، فقد انتهوا إلى أن تعريفات الثقافة مع كثرتها يمكن تحديدها وتوجيهها فى اتجاهين ، كل منهم يتبنى وجهة نظر ينتصر بها لثقافته . حيث اتجاه أول يرى " أنها ـ أى الثقافة ـ تشير إلى النمط الكلى لحياة شعب ما والعلاقات الشخصية بين أفراده وكذلك توجهاتهم " [٢٨] ، واتجاه ثانى ذهب إلى :" أن الثقافة تتكون من القيم والمعتقدات والمعايير والتفسيرات العقلية والرموز والأيديولوجيات ، وما شاكلها من المنتجات العقلية "[٢٩].

ومثل هذا الاتجاه نجده الاتجاه الغالب فى التعريفات ، إذ يرتكز حضوره الدائم فى المراجع على أساس أنه أقدم التعريفات الاصطلاحية ، أورده عالم االإنثروبولوجيا ـ إدوارد تايلور ـ فى كتابه ـ الثقافات البدائية ـ حيث قال:"إن الثقافة هى كل مركب يشتمل على المعرفة والمعتقدات ، والفنون ، والأخلاق والقانون والعرف ، وغير ذلك من الإمكانات أو العادات التى يكتسبها الإنسان باعتباره عضوا فى المجتمع"[٣٠] .

وهو عين التعريف الذى يتبناه الإنثروبولوجيون ـ علماء الأجناس ـ الاجتماعيون لتوافقه مع فلسفة عصر الهيمنة الملقب بعصر العولمة ؛ وعلى الرغم من أن الشروح والتفسيرات المتعددة للتعريفين قد ملأت بطون الكتب إلا أن ذلك لايمنعنا من الأخذ بملخص للتعرفين ودلالة كل منهما ، وفقا لما أورده إيمانويل والرشتاين فى كتاب ـ الثقافة والعولمة والنظام العالمى ـ إذ يقول : " يضعنا مفهوم الثقافة ذاته أمام مفارقة ضخمة ، فالثقافة ـ من حيث التعريف ـ تتسم بالخصوصية . إنها مجموعة القيم أو الممارسات لجزء أصغر من الكل . ويصدق ذلك سواء أكان المرأ يستخدم الثقافة من زاوية أنثروبولوجية لتعيين القيم و/أوالممارسات الخاصة بمجموعة معينة فى مقابل أى مجموعة أخرى على مستوى الخطاب نفسه ـ الثقافة الفرنسية فى مقابل الثقافة الإيطالية ـ ، أو الثقافة البروليتارية فى مقابل الثقافة البرجوازية ، أو الثقافة المسيحية فى مقابل الثقافة الإسلامية ، الخ ـ ؛ أم إن كان المرء يستخدم الثقافة من زاوية الأدب المحض لتعيين القيم ، و/أو الممارسات ـ العلوية ـ وليس ـ القاعدية ـ لأى مجموعة ، وهو المعنى الذى يشتمل بشكل عام على الثقافة بوصفها تمثيلا، ونتاجا لأشكال فنية ، إن الثقافة فى الاستخدامين هى مايشعرالأفراد به ، أو يقومون بعمله بما يختلف عن أفراد آخرين لايشعرون بالأشياء نفسها ، أو يقومون بعملها "[٣١].

ومثل هذه االمفاهيم التى ذكرها ـ أنويل فالرشتاين ـ هنا ـ لهى أقرب ما تكون إلى المفاهيم الثلاثية التى ذكرها ـ إليوت ـ فى كتابه ملاحظات حول الثقافة ، فعنده " يرتبط مفهوم كلمة ثقافة بحسب ما نعنيه من نمو الفرد ، أو نمو فئة ، أونمو طبقة ، أو نمو مجتمع بأسره ، فثقافة الفرد تتوقف على ثقافة فئة أو طبقة ، وثقافة الفئة أو الطبقة ، تتوقف على ثقافة المجتمع كله الذى تنتمى إليه تلك الفئة أو الطبقة ، ومعنى ذلك أن ثقافة المجتمع هى الأساس " [٣٢].

إذ من وجهة النظر هذه يتم توريث الثقافة ، فالمجتمع يورث الفئة أو الطبقة ، ثم تقوم تلك الطبقة أو الفئة بتوريثها للأفراد ، الذين يشكلون بدوهم الفئة أو الطبقة ، التى تشكل فى نهاية الأمر المجتمع .لقد حملت جماعة من علماء الإنثروبولوجيا على عاتقها ترسيخ فكرة تأثر الثقافة بحسب مكونات الجينات الوراثية للإنسان ، وخضوعها لما خضعت له الكائنات الحية من تطور توافقا مع نظرية التطور الدروينى ، خاصة قانون الانتخاب الطبيعى ، إذ كما يقول أجنر فوج : " الانتخاب الثقافى يشبه كثيرا جدا نظرية داروين عن الانتخاب الطبيعى . ذلك أن العمليات

الثلاثة الأساسية هى نفسها تباين وتكاثر وانتخاب . والفارق هو أن نظرية داروين تتناول الوراثة الجينية بينما تتناول نظرية الانتخاب الثقافى الوراثة الثقافية "[٣٣] .

وسنرى لاحقا أن هذه الرؤية تهدف إلى ماتهدف إليه السياسة العالمية من الهيمنة الثقافية على ثقافات العالم كله ، وبخاصة العالم الثالث ، حيث وصفه بالثالث يمثل ثقافة التخلف ، كما ذكر المفكر الفرنسى روجيه جارودى فى كتابه ـ كيف نصنع المستقبل ـ وهو ما سنعود إليه لاحقا. وحتى لاننزلق إلى داخل متاهة تعريفات الثقافة التى حذرنا منها سلفا ، نجمل ملخص ما قد تجده من تعريفات فيما أورده مايكل أنجلو فى كتاب ـ أعداء الحوار ـ إذ كتب تحت عنوان ـ معانى الثقافة الثلاثة :

" فى المقام الأول من المهم أن نذكر أن كلمة ثقافة التى تستخدم بمناسبة وبغير مناسبة كديكور ليس لها معنى واحد ، بل ثلاثة معان متصلة فيما بينها ، ويتمايز بعضها عن بعض ، ويمكن أن تسبب لنا بعض اللبس .

المعنى الأول : إن الثقافة فى المقام الأول هى مسارنا التربوى نحو النضج الفردى ، وهذا المعنى يتلاقى مع جذور الاشتقاق لأصل الكلمة ، والذى يعنى ـ زرع ـ .. وهذا هو معنى بعض التعبيرات مثل ـ شخص واسع الثقافة ـ أو ـ مستوى ثقافى متوسط بين للشباب العاملين .

المعنى الثانى : وتعنى ـ الثقافة ـ فى المقام الثانى مجموع الأعمال التى أثمرها العقل البشرى ، والنفس البشرية ، مثل الأهرامات ، ونظرية فيثاغورث ، ونظرية النسبية، والكوميديا الإلهية ، وروايات بورج . إننا نشير إلى ثقافة القرن الواحد والعشرين .المعنى الثالث : هذا هو المعنى الأكثر عمومية ، وفى نفس الوقت الأكثر فنية ، فعلماء الإنثروبولوجى وعلماء الاجتماع يعنون بالثقافة مجموعة المظاهرالمميزة لمجتمع إنسانى ، وطريقة عيشهم بعيدا عن تقيم القيم ، فعندنا ثقافة العصر الحجرى ، وثقافة الغجر ، وثقافة منطقة جبال الإنديز. وهذه الدرجات الثلاث ليست متباينة بطرق كبيرة ، بل هى متراكمة إلى حد ما ، ..وهى لاتقدم حوارا ، ولكنها يمكن أن تؤدى بنا إلى إتحاد روحى ، أو على العكس إلى انغلاق نرجسى على أنفسنا "[٣٤]

وأخيرا : دعنا نقول مع ـ إليوت ـ إن" الثقافة يمكن أن توصف وصفا مختصرا بأنها ما يجعل الحياة تستحق أن تحيا . وهى التى تجعل الشعوب والأجيال على حق حين تقول وهى تتأمل آثارمدينة بائدة : إن هذه المدينة كانت تستحق أن توجد"[٣٥] .

تلكم العبارة التى يجب أن تكون نبراسا لنا يقودنا إلى فهم الكيفية الثقافية التى تباد بها المدن حتى لا نلقى بالتبعة على الأجيال القادمة ، إن همو ورثوا منا تركة ثقيلة سعوا بكل ما أوتوا من قوة للتخلص منها ، إما بالتنكرلها والتنصل منها ، وإما بهدم ما تبقى منها نتيجة جهل أو تجهيل بما لها من قيمة جامعة بين الحسى والمجرد ، بين المادة والروح .

ولنختم هذا المبحث بما قاله الكاتب البريطانى ريموند ويليمز ١٩٢١ـ ١٩٨٨فى كتابه ـ الثقافة والمجتمع ـ من " أننا نحتاج إلى فكرة موسعة عن الثقافة بأنها نمط كامل للحياة " [٣٦].

الغزو والثقافة :

ولأن القصد هو الغزو الثقافى ، فما كان لنا أن ننطلق بعد التعريف بمفاهيم الثقافة ـ لغة واصطلاحا ـ إلى النظرفى أشكال الغزو وغاياته دون النظرفى شق عنوان البحث الثانى ، الذى جاء أولا من حيث تدوينه كتابة ، وجاء ثانيا من حيث بيان مفهومه ، وأنا أعنى به هنا كلمة ـ غزو ـ التى تحمل لنا حروفها عددا من المعانى اللغوية والاصطلاحية .

المفهوم اللغوى لكلمة الغزو:

جاء فى معجم مقاييس اللغة : الغزو ـ الغين والزاء والحرف المثقل أصلان صحيحان،أحدهما طلب شيء والآخر من باب اللقاح فالأول غزو. ويقال غزوت غزوا والغازى الطالب لذلك والجمع غزاة ؛ وفى لسان العرب : غزا الشيء غزوا أراده وطلبه .. ومغزى الكلام مقصده ، وعرفت ما يغزى من هذا الكلام ، أى ما يراد ، والغزو القصد ، وكذلك الغور ، .. وغزا الأمر واغتزاه ، كلاهما قصده ، وغزوى كذا أى قصدى . والغزو: السير إلى قتال العدو، والاسم غزاه . وغزا فلان بفلان واغتزى إذا اختصمه من بين أصحابه ؛ وفى المصباح المنير : غزوت العدو غزوا ، فالفاعل غاز ، والجمع غزاة ، .. ويتعدى بالهمزة ، فيقال : أغزيته ، إذ بعثته يغزو ، وإنما يكون غزو العدو فى بلاده . وفى مختارالصحاح : غزا ـ غزوت ـ العدو من باب عدا . والاسم الغزاة . ورجل غاز ـ وجمعه ـ غزاة ـ كقاض وقضاة ، وأغزاه ـ جهزه للغزو، ومغزى الكلام ـ مقصده ، وعرفت ما يغزى من هذا الكلام ، أى ما يراد . وفى الوجيز: غزا العدو غزوا ـ سار إلى قتاله ، فهو غاز . والجمع غازة ، وأغزاه جهزه للغزو ، والغزاة اسم من الغزو . [٣٧] ؛ وفى المعجم الفلسفى :

لفظ غزا يغزو من معانيه غزا العدو ، إذ سار إلى قتالهم وانتهابهم فى ديارهم [٣٨].
وخلاصة القول : تشير كلمة غزو إلى معانى الطلب والقصد ، والإرادة والتوجه ، والتجهيز والإرسال ، والقتال والغلبة والقهر، والسلب والنهب .

المفهوم الاصطلاحى لكلمة الغزو:

كما تعددت مفاهيم كلمة الثقافة لغة واصطلاحا ، كذلك الحال فى كلمة ـ غزو ـ حيث رأينا تعدد المعانى التى ذهبت إليها من حيث اللغة ، أما من حيث الاصطلاح فإنها لا تفارق الإضافة، ككلمة الثقافة ، فإذ أضفت كلا من الكلمتين إلى الآخر، فإن تلك الإضافة تحمل إلينا ليس مفهوما واحدا اصطلاحيا ، وإنما مفاهيما عدة ، تخضع أولا: للقصد والغاية ، وتخضع ثانيا : لرؤية المتلقى من حيث القبول المطلق أوالرفض المطلق ، من حيث المواربة والمواءمة أو المقاربة بين ثقافة الغازى وثقافة المغزو . وإذ يعرف أحد الباحثين الغزو بإضافته إلى الثقافة بقوله : " الغزو الثقافى هو كل فكرة ، أو معلومة ، أو برنامج أو منهج ، يستهدف صراحة أو ضمنا ، تحطيم مقومات الأمة الإسلامية ، العقدية ، والفكرية والثقافية و الحضارية ، أو يتحرى التشكيك فيها ، والحط من قيمتها ، وتفضيل غيرها عليها . وإحلال سواها محلها ، فى الدستور ، أو فى مناهج التعليم ، أو برامج الإعلام والتثقيف ،أو الأدب والفن ، أو النظرة الكلية للدين والإنسان والحياة "[٣٩]. ومثل هذا التعريف للغزو الثقافى يكاد يكون المفهوم العام عند طبقة الرفض المطلق لثقافة الآخر، إلا أن القبول به ،أوتبنى رؤيته ما ينبغى أن يكون لنا أو لغيرنا دون أن نبرهن بالدليل على أن تعميم هذا الحكم على الغزوالثقافى، وعلى الإسلام والمسلمين فقط فيه إجحاف بحق غزو ثقافى ـ لنا ولغيرنا ـ عن قصد وإرادة ، بغية البناء لا بغية الهدم ، بغية الرفعة لا بغية الحط والتدنى ، وليس أدل على هذا من غزوالإسلام للعالم إبان الفتوحات الإسلامية التى أرادت لثقافة الإيمان أن تغزو وتهدم ثقافة الكفر،أرادت لثقافة الحرية ،أن تغزو وتقضى تماما على ثقافة الإذلال والعبودية ، أرادت لثقافة العلم أن تغزو ثقافة الجهل وتبدد ظلمته الحالكة التى سادت العصور الوسطى بفعل من أفاعيل ثقافة راجل الدين المسيحى ،..الخ . لقد كان الغزو الإسلامى غزوا حافظ على تراث الشعوب ،على تنوع ثقافاتهم ،غزوا زادهم لم ينقصهم ،غزوا أخذ منهم كما أعطى لهم، غزوا تعلم منهم كما علمهم ، ليت مثله فى عالم اليوم يأخذ بنا ومنا ، ونأخذ منه ، إن لم يكن هو هو.

بيد أن التنوع لمفهوم كلمة ـ الغزو ـ بالإضافة ، لكونه من السعة بحيث لا يمكن حصره فى هذه الكلمات ، إلا أن البعض أورد تعريفا اصطلاحيا للغزو أرجعه إلى الفعل " غزا يعنى استكشف ، ومنه غزو الفضاء ، بمعن أراده وطلبه وقصده " [٤٠] ومنه بالقياس غزو العلوم بقصد المعرفة ، وغزو الصحراء بقصد التعمير، وغزو القلوب بالحب بقصد التآلف من أجل التوحد والنصرة، إذ جاء فى التنزيل"هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم"[٤١] .

لكن يبقى الغزو الثقافى بكل المعانى التى وردت فى التعريف السابق قائمة . قائمة بكل شكل من أشكال القبح التى عرفتها الإنسانية أو لم تعرفها ، بكل أشكال التدنى والانحطاط ، بكل أشكال المهانة والإذلال ، بكل أشكال التبعية والعبودية ، بكل صور وأشكال السحق والمحق ، والتخريب والتدمير، بكل ماهو دون إنسان ، بل ودون الحيوانى أيضا ، فإن كنت فى شك من هذا الوصف فاقرأ مقولة قائد القوات الجوية الأمريكية اللواء/ وليلم لوانى :"إنهم يعلمون أننا نمتلك بلادهم..إننا نفرض عليهم الطريقة التى يعيشون بها ويتحدثون بها.وهذاهو الشيءالعظيم بالنسبة لأمريكا فى الوقت الراهن"[٤٢].

فإن لم تذهب هذه الكلمات الشك منك ، إن كنت لازلت ممن يعيش حالة التردد ، الحيرة ،القلق، فاقطع الشك باليقين مستكملا معى قراءة هذا البحث .

الغزو العسكرى قاعدة انطلاق الغزو الثقافى :

أبدا لن تجد فى التاريخ الإسلامى ـ قديما وحديثا ـ ثقافة ما يعرف باسم الحروب المقدسة ، كما هو الحال فى الثقافة والفكرالغربى ، إذ مع تبنى الغرب للمعتقد الدينى المسيحى على يد الإمبراطور الرومانى ـ قسطنطين ٣٠٦ـ ٣٣٧م ـ ، ومن خلال مجمع نيقة المنعقد فى ٣٢٥م ،بحضور٢٠٤٨أسقفا للنظرفى المشكلة الآريوسية حول طبيعة المسيح ـ أهو بشرمخلق ، أم مساو للآب فى الجوهر، والذى صيغ فيه قانون الإيمان المسيحى بعد إقراره من قبل ٣١٨أسقفا من أصل ٢٠٤٨، وفيه جاء : "نؤمن بإله واحد ، آب ضابط الكل ، خالق جميع الأشياء المتطورة وغير المتطورة، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الواحد المولودمن الآب ،أى من جوهرالآب ،إله من إله نورمن نورإله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للآب فى الجوهر، به كان كل شيء ، ما فى السماء وما على الأرض ، الذى من أجلنا نحن

البشر، ومن أجل خلاصنا نزل ، تجسد وصار إنسانا وتألم وقام فى اليوم الثالث ، وصعد إلى السماوات وسوف يأتى ليدين الأحياء والأموات بالروح القدس"(٤٣) .

والاستهلال بهذا النص الذى هو عندهم قاعدة انطلاق لكل شيء فى ثقافة الدنيا والدين مرجعه إلى فرض قسطنطين وصايته الكاملة على الدين المسيحى عقيدة وشريعة وفق مرجعية مجمع نيقية ، إذ مع تبنى الإمبراطورية الرومانية الغربية بقيادة قسطنطين لهذا المعتقد الجديد على الكنيسة الشرقية ، تم تقديس الصليب ، بإعتبارصلب المسيح أحد أهم أركان عقيدة مجمع نيقية ، كما استغل هذا التقديس سياسيا عندما جعل من الصليب علما على حروب الغرب الطاحنة ضد العالم الاسلامى ـ فيما بعد ـ مطلقا عليها ـ فى أدبياته ـ اسم الحروب الصليبية ، التى شنها الغرب المسيحى على المسلمين بحجج ظاهرة واهية ، ألبسها عن عمد عباءة الديانة المسيحية ؛ وكما قال أرنولد توينبى فى كتابه ـ مختصر التاريخ ـ :" إن مصطلح الحروب الصليبية يطلق عادة على تلك الحملات العسكرية الغربية التى خرجت من أوروبا الغربية بتحريض البابا وبركاته؛لتحقيق إنشاء مملكة مسيحية فى بيت المقدس،أو لدعمها، أو لإنشائها مرة أخرى"(٤٤).

وهى الغاية التى لازال العالم الغربى يتطلع إليها منذ ذلك التاريخ ـ عسكريا واقتصاديا وسياسيا وثقافيا ـ لا أقول حتى الآن ، ولكن أقول حتى يتحقق لهم ما آرادوا، ليس بيت المقدس وحسب ـ الذى أعلن رئيس الإمبراطورية الأمريكية تسليمه لليهود كعاصمة أبدية لهم فى حضور عالم إسلامى عربى أقل ما يوصف به أنه حضور العبد أمام سيده ـ وإنما غاياتهم علمنا العربى والإسلامى كله ـ تنفيذا لوصية رب اليهود والمسيحيين ، برفع راية الصليب المعانق لنجمة داود فى كل أنحاء العالم ، حتى الكعبة المشرفة ـ بيت الله الحرام ـ الذى ببكة . وليس أدل على هذا من قول المؤرخ الأمريكى كافين رايلى فى كتابه ـ الغرب والعالم ـ :" لقد اكسبتنا القدرة قبل الحروب الصليبية بعهد طويل على تبريرأشد أفعالنا بربرية باسم الله ، أو باسم الحضارة المسيحية ، أو باسم العالم الحر، وهو الصورة العلمانية لهذه الحضارة ، فالثورة العبرانية حافلة بالفظائع التى أصرشعب الله المختار على أنها ترتكب باسم الرب . وقلما نجا المصريون أو القبائل الكافرة من انتقام الرب الغيور منهم على أيدينا "(٤٤) .

من هذا المنطلق أصبح قول بولس "القتال فى سبيل المسيح" ، من أقدس الأقوال التى تلهب حماسة المسيحيين من كل طبقات المجتمع الأوروبى ، خاصة بعد أن أدرج البابا ـ أوريان الثانى ـ فى قائمة أسباب الحملات الصليبية على المسلمين دافعا آخر هو:"الأمل فى أن يحارب الفرسان المسيحيون حروبا صالحة بدلا من المنازعات الخاطئة..ومن شأن انتصار المسيحية على المسلمين أن يرد بيت المقدس إلى الحكم المسيحى ، ولعله يعيد توحيد الكنيسة الشرقية والغربية بين المنشقين"(٤٥).

وأضف كافين "لقد ظل المسيحيون على إيمانهم بهذا الإله المنتقم . وفى نهاية القرن الرابع ردد كثير من المسيحيين فى روما دعوة للدفاع عن بلادهم ضد البرابرة منعدمى الإنسانية الذين لم يكونوا ـ على حد قول أساقفتهم ـ سوى كلاب ملعونة . غير أن الحرب الأوروبية والثقافة الأوروبية لم تستكمل مسيحيتها إلا بعد الغزوات البربرية "(٤٦) . تلك البربرية التى وصفت مميزاتها وصفا مختصرا فى كتاب ـ ثقافة أوروبا البربرية ـ لمؤلفه ـ إدغارموران ـ والذى يقول :" نلاحظ ظهور مميزات البربرية المرتبطة بسلطة الدولة وبالغلو الجنونى فى المجتمعات التاريخية . فلقد نفذت غزوات لضمان الحصول على المواد الأولية أو احتياطات المئونة تحسبا لفترات الجفاف أوالأمطارالغزيرة.لكن ماحدث على وجه الخصوص هو احتدام وانفلات الغزوات والتى ستتجاوز الحاجة الحيوية وستتمظهر فى إبادات وعمليات تخريب ممنهجة وسلب واغتصاب واسترقاق " (٤٧).

هذا بالإضافة إلى ما جاء فى كتاب ـ أوروبا والتخلف فى إفريقيا ـ لمؤلفه الدكتور/ والترودنى حيث قال :" فى أنحاء شاسعة من أوروبا نجد أنه قد تم إفساح الطريق أمام انتشار العبودية بوصفها الشكل الجديد الذى يتم تعبئة العمل من خلاله ، وقد استمرت هذه العبودية طوال العصور الوسطى فى أوروبا ، أسهم فى بقائها قيام الحروب الصليبية من جانب المسيحيين فى أوروبا ضد المسلمين لتصبح مبررا إضافيا لاستعباد الناس " (٤٨) .

ويذكرتايلور فى كتابه ـ قصف العقول ـ أن المؤرخين المحدثين قد حددوا أسباب أولى الحملات الصليبية على المسلمين،فذكروا " أنها كانت بسبب تزايد عدد السكان فى الغرب ، وجهود الكنيسة لمنع الحروب المحلية بين الشعوب المسيحية ،إضافة إلى الأسباب الاقتصادية "(٤٩) ، ويؤكد تايلور على " أن الكنيسة كانت حريصة على

إقناع طبقة الفرسان بتحويل طاقاتها العدوانية وتوجيهها ضد غير المسيحيين ، يتفق هذا مع عظة البابا ـ أوربانيوس ـ فى مجمع دشنته الكنيسة ١٠٩٥م بفرنسا ، حيث خطب البابا ـ أوربانيوس ـ فى فرسان الاقطاع الأوروبى قائلا :"أنتم فرسان أقوياء ، ولكنكم تتناطحون وتتنابذون فيما بينكم ، ولكن تعالوا وحاربوا الكفار ـ المسلمين ـ . يامن تنابذتم اتحدوا ، يامن كنتم لصوصا كونوا الآن جنودا . تقدموا إلى بيت المقدس . أنتزعوا تلك الأرض الطاهرة ، واحفظوها لأنفسكم ، فهى تدر سمنا وعسلا ..إنكم إذا انتصرتم على عدوكم ورثتم ممالك الشرق"(٥٠) .

تلكم هى غايات الحروب العسكرية الصليبية التى توهموا نجاحهم فى إخفائها خلف ستار دينى مقدس، خداعا للعامة وللتاريخ ، الذى أثبت بالبراهين الدامغة متاجرتهم بالمسيح والمسيحية لصالح تلك البربرية المنحطة التى غدت ثقافة راسخة فى العقلية الغربية تخطت حدودها الزمانكية ـ الزمان والمكان ـ لتفرض على المجتمع الإسلامى بقوة السلاح والتسليح منهجها الاستبدادى الاستعبادى، بل وعلى العالم كله. وقد أنصف الدكتور جمال حمدان عندما قال فى كتابه ـ استراتيجية الاستعمار والتحرير : " قد تكون الصليبيات بدرجة أو بأخرى اسما على غير مسم ، لأنها وإن كان الدين شعارها المعلن ، فإن من المسلم به اليوم غربا وشرقا أن محركاتها ودوافعها الخبيثة كانت أساسا علمانية الدولة ... ولهذا فالصليبيات فى رأى السواد الأعظم من المؤرخين ، كانت حربا استعمارية ، استعمارا سياسيا واقتصاديا لاشبهة فيه إلا شبهة قناع الدين ، بل يعدها بعض كتاب الغرب أول حركة استعمارية كبرى قام بها الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى . ومرحلة الانتقال بين الاستعمار الجزئى القديم الذى باشرته أثينا وروما وبين الاستعمار الحديث الذى ستخرج إليه أوروبا بأسرها فى المستقبل"(٥١) .

ذلك المستقبل الذى جاء حاملا معه طابع البربرية التى سادت الثقافة السياسية للعصر الوسيط ـ بفعل من أفاعيل رجال الكنيسة توافقا مع ثقافتهم الدينية . إذ عندما أذن برحيل العصر الوسيط بعد حروبه الصليبية التى بدأت ١٠٨٥م ، ودحرت عام ١٢٩١م ، على يد العرب والمسلمين الذين دخلوا إلى أوروبا ـ غزاة ـ بعقيدة وثقافة إسلامية حملت إليهم أمنا وإيمانا ، هما بنيانا المادة والعقل ، بعدهدم حصون الفزع والرعب والظلم بأسلحة العدل والطمأنينة ، بعد هدم صروح الكفر بتبديد ظلمة الجهل بأنوار العلم ، فمهدوا بذلك أمامهم الطريق إلى عصر النهضة الأوروبية بعلوم

الدنيا والدين . واقرأ ما كتبه الكاتب ـ بلاسكو إيبانز ـ فى كتابه ـ فى ظل الكاتدرائية ـ عن هذا التأثير والأثر الإيجابى للمسلمين فى الأوروبيين ، إذ يقول :" إن انتعاش إسبانيا لم يأت من الشمال ، حيث القبائل البربرية ، بل من الجنوب مع العرب الغزاة .. لقد استولى العرب خلال سنتين على ما بذل الآخرون لاسترجاعه منهم سبعة قرون ، إن ذلك لم يكن فتحا يفرض ذاته بقوة السلاح ، بل كان مجتمعا جديدا يمد من كل جانب جذوره القوية ..وإنما يدين الغرب بعصر النهضة للغزو العربى الذى عرف كيف يخلق الشروط الفكرية ـ والثقافية ـ اللازمة لتفتحه"(٥٢).

إلا أن هذا التأثير العلمى الثقافى الإيجابى للغزو العربى الإسلامى فى العالم الغربى ، قوبل منهم بعد أن حصدوا ثماره اليانعة بالتنصل والإجحاف ، بل وقد بلغ بهم الحد فى كثيرمن الأحيان إلى الإزدراء والافتراء كذبا على الإسلام والمسلمين بمنهجية قصد بها ومنها الاستأصل والإقصاء لكل شيء ينتمى إلى الإسلام من قريب أوبعيد ؛ وفيهم يصدق ما جاء فى الحكمة العربية : كل إنان بما فيه ينضح ؛ إنهم برابرة كانت عصورهم الوسطى ـ ملقبة فى ثقافتهم الحديثة بـ "عصور الظلام" ـ لا تتميز تاريخيا إلا بالجهل والتخلف وسيطرة رجال الكنيسة على مقاليد الحياة الدينية والعلمية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية التى قادتهم إلى الحروب الصليبية الاستعبادية ؛ ثم كانت حروبهم الحديثة والمعاصرة المدعومة بأسلحة عصر النهضة ومنتجات الثورة الصناعية ـ الذى يؤرخ له بسقوط القسطنطينية على يد الأتراك فى عام ١٤٥٣م ، المادية والعلمية والفلسفية والثقافية ، كلها سخرت لمناصرة القوة العسكرية الحربية والقوة السياسة ؛ وحسبنا أن نذكر هنا وفى لمحة سريعة المبدأ الغربى فى كل الحروب التى خاضها ويخوضها على مرالعصور، والذى بات سمة عامة من سمات الثقافة العالمية بكل صورها واختلافاتها بما فى ذلك حروبهم العسكرية وغزوهم المسلح لدول العالم وبخاصة العالم الإسلامى والعربى؛ والحديث هنا عن المبدأ الميكافيلى ١٤٦٩-١٥٢٧م ـ الذى تضمنه كتاب ـ الأمير ـ والقائل " إن الغاية تبرر الوسيلة" ، فلقد كان باكورة عصر النهضة حيث كتبه ميكافيلى ١٤٦٩-١٥٢٧م ، واضعا فيه كيفية اغتصاب الإمارات عن طريق جند يدينون للحاكم بالطاعة والولاء ، مع التسليح الجيد ، والتدريب المتواصل ، كذا وضع مناهج السطو والقهر والإذلال ، التقسيم والتفتيت للإمارات ، من أجل الإنهاك والإضاف من باب فرق تسد ،كم ذكر أسلحة المكر والحيل والخداع

للظفربالحروب..الخ، ومن أقواله للأميرفى هذا الباب:" عندما تفتقر الدولة إلى السلاح الكافى ، تنعدم القوانين الجيدة ، وعندما تكون جميع الدول مسلحة تمام التسليح تكون جميع قوانينها جيدة ، وسأتخلى فى حديثى عن القوانين ، واقتصر فيه على الأسلحة "ويقول أيضا : " إن لم تستطع أن تهزمهم ـ أعداءك ـ فانضم إلى صفوفهم "[٥٣] حتى يتم الإيقاع بهم ، من باب تمسكن حتى تتمكن . يؤكد ذلك قوله فى فنون الحرب :" إذا كانت حياة الوطن فى خطر يجب على الإنسان ألا يتقيد فى عمله بقواعد العدل أو الظلم أو بقواعد الرحمة أوالقسوة أو بقواعد الشرف أو عدمه بل يتقيد فقط بما يرى فيه نجاة الوطن والحرص على استقلاله "[٥٤].

باختصار إن ميكافيللى تبنى فى كتابه الأمير مع ما تبناه من فكر ـ علمانية الدولة ـ ؛ إذ كما يقول الدكتور مصطفى الخشاب فى كتابه ـ تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية ـ "من مميزات فلسفة ميكافيللى ـ أيضا ـ أنه فصل فصلا تاما بين الدين والخلاق وبين السياسة ؛ فلم يتقيد فى الأمور السياسية بقوانين الأخلاق والدين وما إليها . وهو فى هذا المبدأ أجاز للحاكم أن يتنكرلمبادئه الدينية وفضائله الأخلاقية مادامت هذه الوسائل تؤدى به إلى الاحتفاظ بسلطانه. فالغاية فى نظره تبرردائما ما يلجأ إليه الإنسان من وسائل مستحسنة أو مستهجنة ، أى إن ميكافيللى جعل من الأخلاق والدين أمورا تابعة للسياسة لايلتفت إليها إذا تعارضت مع الأمانى السياسية" [٥٥]. من أجل ذلك ، ومن أجل هذه الثقافة الفاشستية التى جعلت المنصفين من قرائها مثل الكاتب الانجليزى الشهير ماكولى يكتب مقالا جاء فى ثناياه : إن الشيطان قد أسمى بنيك العجوز" أى قد رفع قدره باعتباراسمه الأول ـ نيقولا ؛ كما ذكر المؤرخ الإنجليزى سيموندر ـ أعظم مؤرخى عصر النهضة ـ :" أن موضوع كتاب الأمير دون بعهد الطغاة ، وكان المعروف والشائع عن ميكافيلى نفسه ، أن سمعته موضع الطعن والشبهات ، لاسيما وقد غدت الميكافللية نعتا يجمع من المعانى ما تحمله كلمة الشيطان مفيستوفى رواية فاوست"[٥٦] .

وهذا لايعنى أنه لم يجد من يمتدح عمله ، بل إن بعضهم ذهب إلى أنه كان من المفكرين الثائرين الذين يرون أن تحقيق الأهداف لايقوم إلا فى الظروف المتناقضة والغلو فى التصرفات ، وكل ما يقال فى الحكم على ميكافيلى أنه عبقرية اتجهت إلى الشر"[٥٧] .

ذلك الشر الذى تلقف ثماره العصر الحديث ، فكان القطف الأول من نصيب العالم الغربى والإسلامى من حروب استعمارية ذاقت ويلاتها ودفعت ولازالت تدفع أثمانها شعوب السواد الأعظم من الدول العربية ، المغرب وتونس والجزائر كانوا من نصيب الاحتلال الفرنسى ، ليبيا من نصيب الاحتلال الإيطالى ، مصر نهب بين استعمارين فرنسى ، ثم إنجليزى مع السودان؛ ولست هنا فى معرض التأريخ لهذه الحملات الاستعمارية التى غزت القارة الإفريقية ، شمالها وجنوبها ، فقسمته ونهبت ومازالت تنهب خيراتها ، وإنما غايتنا التأكيد على أن هذا الغزو قد أطبق وطبق على عالمنا العربى والإسلامى كله ، شرقه وغربه ، شماله وجنوبه ، لقد أطبق علينا كإطباق حجر الرحى على الحب ، كما طبق علينا كل ما حصله من معارف حربية سواء أتلك التى أكسبته إياها الحروب الصليبية ، أو العلوم الميكافيللية ؛ ومنذ الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥م قد زدوا عالمنا تقسيما وتفتيتا ، استبداد واستعبادا ، سلبا و نهبا ، سلوا فى ذلك أفغانستان والعراق ، سلوا فلسطين ولبنان ، سلوا سوريا واليمن ، سلواالبوسنة والهرسك ، سلوا الجزائرسلوا ليبيا وسلوا مانيمارعن مسلمى الروهينجا ، سلوا مصر قلب العروبة والإسلام ؛ ولكن عن ماذا نسل هؤلاء وأولئك!!!؟؟؟ .

التعليم والغزو الثقافى :

إنى لأكتب هذا المبحث بمداد من دم ينزف عن جرح عميق يمتد من العقل إلى القلب ،ومن القلب إلى العقل ، يزداد يوما بعد يوم كلما طالعت فى كتاب الله قوله الأول لمن ختم به النبوات والرسالات ـ محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :"اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم " [٥٨] ، فتحملنى آيات التنزيل الأولى إلى آية من آيات الخلق الأولى ، حيث ترى بعين البصيرة قبل عين البصر الحكمة متجسدة فى أسمى معانيها ،بتعانق فعل الأمرالإلهى ـ اقرأ ـ مع منة العلم الإلهى ، فما الأسماء التى تعلمها الأب البيولوجى الأول للإنسان آدم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ، إلا مادة العلم الأولى " وعلم آدم الأسماء كلها "[٥٩]. ففى الأسماء تجد ماهية العلم بما نحن عليه ، أوكما يقول جون جوزيف أستاذ علم اللغة التطبيقة فى جامعة أدنبرة ـ فى كتابه ـ اللغة والهوية ـ "إن دراسة الأسماء قد همشت لفترة طويلة داخل علم اللغة ، لينحصر الاهتمام بها

فى مجال فرعى يدعى التسميات .. ومع ذلك تعتبر الأسماء النص الرئيسى للهوية الشخصية .."[٦٠] .

من هنا كان مداد الحروف الدم ، فإن كانت الأسماء كذلك ، فهى وبهذا المعنى مفتاح أبواب قرأة وثقافة العقل فى العلوم كلها ٠فأين نحن من القراءة ؟ أين نحن من العلم ؟ أليس فيهما هوية الأمة ؟.فإن وقع الظن فى نفس من يطالع كلماتى هذه أنها صيغت بلغة تتجلى فيها المبالغات اللفظية ، فأقول : دع عنك الظن بمعاينة واقع فيه الكلمات البلاغية المكتوبة تتوارى خجلا لعجزمعانيها ، وقصورحواشيها ،عن تصوير واقع آلت إليه منظومة القراءة والقراء ، آلت إليه منظومة العلم والعلماء ، فى أمة عربية، فى أمة إسلامية ، فى أمة كان الأمر الإلهى الأول الصادر لها ـ اقرأ ـ . من هذا المنطلق أدعوك بدعوة ربى اقرأ ، اقرأ هذه السطور التالية .

لقد كتب الفيلسوف الألمانى فريدريك نيتشة ١٨٤٤ـ ١٩٠٠م ـ فى كتابه ـ هكذا تكلم زرادشت :" تقولون إن الغاية المثلى تبرر الحرب،أما أنا فأقول لكم إن الحرب المثلى تبرر كل غاية"[٦١]

فهنا أصبحت الحرب غاية مطلقة ووسيلة مطلقة ، مبررة القتل ، السلب ، الاستعباد ،إذ تباح فيها ولأجلها كل الوسائل ؛ فإن تساءلت عن تلك الحرب المثلى التى تبررالغاية من وجهة النظر النيتشية ؟

أقول لك القراءة ، حقا إنها القراءة مفتاحا للعلم بمقاصد الكلمات ، فإن أنت قرأت نيتشة ، قرأت فلسفته ، لأدركت بداهة أن حربه المثلى التى تراءت له من خلال فلسفته هى الحرب على ـ الله ـ ،" لأنه صاحب نظرية موت ـ الإله ـ ، ثم الحرب على الإنسانية المتدنية المنحطة لاستئصال شأفتها ،لأنها لاترقى للعيش فى هذا العالم الذى ينشد الترقى إلى درجة الكمال ؛ فإن أردت أن تعرف مالإنسانية المنحطة عنده فإنها تتضمن نظريته فى الإنسان الأعلى ـ السوبر مان ،فإن أرت أن تعرف أكثر، فما عليك إلا أن تسترجع جذوره اليهودية "[٦١].

وحسبنا ما جاء فى وجه المشابهة بين نيتشة وميكافيللى ، وهى المشابهة التى لخصها راسل فى الكتاب الثالث من تاريخ الفلسفة الغربية ، حيث يقول : "من الطبيعى أن نشبه نيتشة بميكافيللى رغم الفوارق الهامة بين الرجلين، فميكافيللى رجل أعمال، أما نيتشة فلقد كان أستاذا ، رجل كتب فى الصميم،وفيلسوفا يعارض معارضة واعية التيارات السياسية والأخلاقية ،ومع ذلك فوجوه التشابه بينهما

أعمق،ففلسفة نيتشة السياسية تماثل فلسفة الأمير،مع أنها تحققت وطبقت فى ميدان أوسع ؛ ولنيتشة وميكافيللى كليهما فلسفة أخلاقية تهدف إلى القوة "[٦٢]
إنها القوة المستمدة من اتحاد رجل الأعمال بماله ،مع رجل الفلسفة والعلم بعلمه وفلسفته ، فى الثقافة الغربأمريكية المعاصرة ، إنها قوة الحرب ثم الحرب ثم ...الحرب أيضا ، تلكم الحرو ب التى تارة تكون غايات فى ذاتها ، وتارة تكون وسائل لغايات . والحق أنه أنت وأنا ونحن غاياتهم ، غاياتهم لمحونا ، لقتلنا أحياء بالجهل والتجهيل فى عالم العلم . أما من وجهة النظر العربية الإسلامية ، التى قد يتراءى للقارئ منا ـ إن كان منا من يقرأ ـ عند الوهلة الأولى أنها ولا شك تبعد عن الوجهة النظر النيتشية بعد السماء عن الأرض، ذلك عندما يقرأ مقولة الامام محمد عبده "كل من طلب غاية فى حياته بغير علم لايصل اليها"[٦٣]، أقول رؤيتك هذه أبعد ما تكون عن نتاج المقارنة العقلية المنطقية بين المقولتين ، خاصة فى ضوء الرؤية التأملية الواقعية الكارثية لواقع القراءة وواقع الكتاب الذى هو مفتاح أبواب العلوم والثقافات .

القراءة والكتاب واقع ثقافى كارثى :

إن المسافة بين القرن الرابع عشر ـ عصر النهضة الأوروبية ـ والقرن الحادى والعشرين ـ عصر الثورات والانقلابات العلمية الأروأمريكية ـ إذا ما استخدمنا فى قياسها وحدة القياس الزمنى ـ السنة ـ فهذا يعنى أنها = سبعمائة عام ، أما إذا استخدمنا وحدة القياس الزمنى ـ القرن ـ فهى = سبعة قرون ؛ وهنا أكاد أشتم منك رائحة الأدرينيل الذى يفرزه الجسم عند الشعور بالغضب والخوف الشديد ، وأنا معك قلبا وقالبا اتفق بأن هذا الذى قلته آنفا ليس إلا فلسفة رقمية بلهاء ، لايغتفر لكاتبها مطلقا ، فما الخطب إذ ما كتبت فى بحث علمى؟ ، اللهم ما لم تكن كتبت كمقدمة لوحدة قياس فلسفية ثقافية جديدة تربط بين الماضى والحاضر ، فإن كان هذا التبرير يشفع لى عندك ، فها أنذاك أقدم لك وحدة قياس فلسفية جديدة ، أتمرد بها على الوحدتين السابقتين التقليديتين ، أجمع فيها بين الفلسفة والعلم والثقافة من منظور قراءة الواقع ، الذى يقول وفقا لوحدة القياس الجديدة : إن المسافة بين القرنين = كتابان ، نعم فأنا أعنى ما أقول ، إن الكتابين يمثلان رابطا علميا وعقليا وعقائديا وثقافيا بين القرنين الرابع عشر والحادى والعشرين ، يتبن لك منطقية القياس وصحة الحكم عندما تعرف أن الكتاب الأول هو ذلك الكتاب الصغير فى

الحجم ، العظيم فى الأثر ـ الأمير ـ الذى وضعه نيقولا ميكافللى من ٧٠٠عام ، فامتد أثره العلمى والثقافى لغزو القرن الحادى والعشرين ، حيث يلتقى بالكتاب الثانى ؛ وكم كنت أتمنى أن يكون هذا الكتاب الثانى لأحد العلماء المسلمين على امتداد العالم الإسلامى كله ، لكن الحياة عند من يعرف قيمة الحياة ليست بمجرد الأمانى دون العمل ، فإن كان التمنى الأول حال بيننا وبينه عدم وجوده أصلا ، فإن التمنى الثانى رغم وجوده فأبدا لن يكون هو ، لن يكون كتاب ـ نظرية النسبية ـ لأشهر عالم من علماء الإنسانية قاطبة فى مجال العلوم الطبيعية ، شهد ميلاده القرن التاسع عشر ١٨٧٩م ،وغادرها فى بداية النصف الثانى من القرن العشرين ١٩٥٥م ، ألا وهو الألمانى اليهودى ألبرت أينشتين ، الذى غيرت أبحاثه العلمية الخريطة العقلية العلمية لكل علماء المعمورة فى العلوم العملية والنظرية على وجه العموم ، خاصة نظريتيه فى النسبية : النسبية الخاصة ١٩٠٥م والنسبية العامة ١٩١٥م ، ليتبوء بهما صدارة علماء العلم فى كل أرجاء العالم ، وليحرز جائز نوبل فى العلوم عن أبحاثه التى ساهمت فى ارتفاع الإنسانية إلى الفضاء ، حيث القمر والمريخ ، وحروب الكواكب ، وحيث الأقمار الاصطناعية ، وثورة الاتصالات ـ صوتا وصورة،فضلا عن الأسلحة النووية الملقبة بأسلحة الدمار الشامل،إذ يقال بأنه " قد أرسل خطابا إلى الرئيس الأمريكى ـ فرنكلين روزفلت فى خريف سنة ١٩٣٩م ينبئه بإمكانية عمل قنبلة يدخل فى تكوينها ـ اليورانيوم ـ ولها فاعلية هائلة فى الهدم والتدمير " (٦٤) .

فكانت القنبلة النووية ، ذلكم السلاح المسلط على رقاب الأمم والشعوب ، أداة من أدوات القهر والاذلال ، أداة من أدوات الاستعمار والاستعباد .

وإذ يبقى الكتاب الثانى فى وحدة القياس وكأنه لغز من الألغاز كتلك التى كتبها ـ آرسيل لوبين أو شارلوك هولمز ـ فإن لم يكن النسبية بكل مآثرها العلمية ، فمن ذا الذى يفوق النسبية فى الأهمية بحيث يصبح نقطة التلاقى بين ثقافة عصر النهضة والثقافة المعاصرة ؟

وإنى لعلى ثقة تامة من الدهشة التى ستستولى على عقل القارئ العربى بوجه الخصوص والإسلامى بوجه العموم ، عندما يعرف أن الكتاب الثانى ما هو إلا كتاب تم تأليف فى بضعة أشهر ، وصدرمنذ أسابيع قليلة ـ ٢٠١٨/١/٥م ـ عن دار نشر أمريكية تسمى ـ هنرى هولف وشركائه ـ والكتاب يحمل عنوانا ـ ما أحوجنا إلى عنوان مثله يوصف ما آلت إليه حياتنا العلمية والثقافية ـ إذ اسم الكتاب باللغة

الإنجليزية " Fire and Fury " وترجمته بالعربية "نار وغضب " ، واسم مؤلف الكتاب " مايكل وولف " ، وهو المؤلف الأكثر سعادة وحظا فى العالم لنفاد الطبعات الأولى من الكتاب فور صدورها ، كما وإنه الأعلى كذلك فى العالم من حيث المبيعات على أشهر موقع إلكترونى لبيع الكتب ـ أمازون ـ والكتاب بلغة العلم ليس علميا ، لكنه بلغة الثقافة ، يصنف كثقافة سياسية ، تنتهك أدق أسرار رئيس الإمبراطورية الأمريكية الحالى دونالد ترامب ـ السياسية والاجتماعية ـ عن طريق ساعده الأيمن السابق ـ ستيف بانون ـ وهنا تتجلى أمام أعيننا واحدة من أهم المصائب العلمية والثقافية التى أبتليت بها أمتنا العربية والإسلامية عندما يطرح معظمنا سؤالا يعد من جهتين بدهيا ، فالسؤال البدهى الأول لماذا هذا الكتاب رغم أنه ليس علميا ؟ وليس يرقى بأى حال من الأحوال إلى شبه مقارنة بينه وبين النسبية؟ والإجابة بدهية أيضا ، تحملها لنا فى ثنايها تجليات الحرية ، نعم إنها الحرية التى جعلت للعقل الإنسانى مكانة مقدسة فى محراب الفكر ليفكر، إنها الحرية التى جعلت من القلم أداة بناء فى عالم العلم ليكتب ،إنها الحرية التى جعلت من الكلمات المكتوبة بالقلم المقرؤة بالوعى مواد بناء تبنى بها حضارات الأمم ، بناء يضرب أساساته فى عمق التاريخ لتحمل وتتحمل رفعة وارتفاع نتاج العقل الذى لم تمنعه حرارة الشمس من أن يشد الرحال إلى القمر.

إن اللقاء الجامع بين الكتابين تمثل فى قراءة حرة ، كتابة حرة ، فى زمن حر ، تسعى نحو غاية ثقافية تحكم العالم كله ، إنها القراءة التى يقول عنها أعظم التربوين فى العالم وفيلسوف تربية الحرية ، البرازيلى ـ باولوفريرى ١٩٠٠ ـ ١٩٩٧م ـ فى كتابه ـ المعلمون بناة ثقافة : "إن قراءة الكلمة قراءة واعية تمكننا من مراجعة قراءتنا السابقة للعالم ، ولكن القراءة ليست متعة خالصة، ولا فعلا ميكانيكيا لاسترجاع وتذكر النص .. ولايمكن لإنسان أن يدرس دراسة حرة حقيقية أصيلة ، إذا لم يتخذ من النقد سبيلا ووسيلة فى دراسته أو قراءته التى هى فى نهاية المطاف قراءة ودراسة كاشفة أو مستكشفة ، ذلك أن القراءة بهذه الكيفية ماهى إلا عملية بحث ابداعى ، وفهم واع لما نقرأ"[٦٥] .

لقد قرأ ميكافيللى الواقع المعاصر له فأبدع كتابه ـ الأمير ـ ، الذى تخطى القرون السبعة ليغزو بما فيه من علم وثقافة العالم ، ولينشر ثقافته بين كل من طلب الإمارة ، وأراد الخلد فيها ؛ وقرأ مايكل وولف الواقع المعاصر له ، فكتب نار وغضب ، فأشعل النار فى العالم كله بما كشفه من علل وأسرار، عفوا أشعل النارفى عقول

المهتمين بالقراءة فى العالم شرقه وغربه ، شماله وجنوبه ،أما نحن !!!؟؟؟ .
ولازال المؤلف والمساعد ودار النشر فى حالة نشوة لم تذهب بها رقابة أو مصادرة، لم يحرق الكتاب ، وإنما دون فى التاريخ كأعظم شاهد ، على احترام الكلمة ، على احترام الكتاب ، على احترام القارئ ، على احترام الباحث ، على احترام الحرية ؛ فأين كاتبنا ؟ أين كتبنا ؟ أين المعلم والمتعلم ؟ أين القارئ ؟؟؟
كن على ثقة ويقين بأنه من نيقولامكافيللى إلى مايكل وولف،كان الكاتب والكتاب والقارئ، كان العلم والمعلم والمتعلم ، كلهم موجه نحو غاية بالكيفية التى ذكرها الإمام ، ولولا هذا وذاك ما كان أبدا فى الثقافة الغربية ، بل وفى العالم الغربى كله نظريات وفنون علوم العصر الحديث بكل تنوعاتها وألوانها ، ماكان ألبرت أينشتين بالنسبية ، ما كان جليلو ١٥٦٤ـ ١٦٤٢ـ بنظرية كوبرنك ـ كروية الأرض ، ما كان إسحاق نيوتن١٦٤٢ ـ ١٧٠٧ بنظرية الجاذبية ـ ما كان رينيه ديكار ١٥٦٩ـ ١٦٥٠ـ أبا للفلسفة الحديثة بالكوجيتى ـ أنا أفكر فأنا إذا موجود ، ما كان جوته بروائعه الأدبية وعلى رأسها فاوست ، مكان وليم شكسبيرليكتب ـ تاجر البندقة وهملت ـ ، مكان فى عالم الموسيقى روائع سيمفونيات بيهوفن ، موزار، فجنر، شوبان ، ماكان ليوناردو ديفنشى وفان جوخ فى فن الرسم ..إلخ ، تلكم بعض اسهامت العلم والعلماء ، الفنانين والأدباء فى العصر الحديث نتيجة القراءة ، لأن القراءة هدفها الحقيقى هو تربية الحرية .
فهل تملك أمة اقرأ ثقافة القراءة وفق هذا المفهوم العلمى الذى أنتج هذه العقول المبدعة صاحبة الكلمة العليا فى ثقافة العالم اليوم ؟ ثقافة بناء لهم،أبعد ماتكون عن ثقافة الهدم التى صدرت لنا، وفرضت علينا؟إنها ثقافة الجوهر لاثقافة المظهر التى حولتنا إلى مسخ مشوهة كمسخهم الفنية.
وللإجابة عن هذا السؤال المطروح منذ زمن بعيد ، وسيظل مطروحا إلى حين، نتساءل بدورنا:هل ترك الغزو المسلح الغربى الاستعمارى الاستبدادى للعالم العربى والإسلامى موضعا قبل رحيله دون أن يغرس فيه بذور العنصرية الجنسية والعقلية ، قبل أن يغرس بذور الطبقية المنتجة لثقافة السادة والعبيد ، لثقافة القاهر والمقهور ، لثقافة القمع والإذلال ؛ إن هذه البذور ماكان لها أن تزرع دون زارع ، ما كان لها أن تقف مستوية على ساقها دون راع ، وما كانت لتؤتى ثمارها دون منظومة تعليم ترسخ فى عقول الأجيال المتتابعة هذه الثقافة العلمية الغربية الرامية إلى التلاعب بالعقول كالتلاعب بعرائس الماريونت من خلال خيوط تحكم وتتحكم فى حركاتها .

وكما يقول باولوفريرى فى كتابه ـ التعليم من أجل الوعى الناقد ـ :" إن الاستعمار لايمكن أن يوفر الشروط الضرورية لتنمية عقلية منفتحة مرنة يتطلبها المناخ الثقافى الديمقراطى "[٦٦] ، إن الاستعمار لايصنع علماء ، لايصنع أدباء ، لايصنع فنانين ، لايصنع إبداعا ، إنما يصنع الاستعمار عبيدا بالجهل والتجهيل ؛ يؤكد ـ باولو ـ على هذا عندما يصف حال بلاده ـ البرازيل ـ التى كان حالها كحالنا الآن بقوله :" يبدو أن كل فرد يحمل لقب السيد ـ سنيور ـ يتطلب من كل فرد آخر أن يسلك نحوه مسلك الخادم . ومما يتردد فى البرازيل مقولة أن العبد يحتاج إلى ثلاثة أمور هى : الضرب والخبز واللباس "[٦٧] ، وصدق ما جاء على لسان المسيح ـ عليه السلام ـ فى كتاب ـ إنجيل توما وتعاليم يسوع السرية ـ إذ " قال يسوع :" لايقدر إنسان أن يمتطى حصانين أو أن يثتى قوسين ، ولا يقدر عبد أن يخدم سيدين ، وإلا فإن ذلك العبد سوف يبجل أحدهم ويحتقر الآخر "[٦٨]

فإن كان العقل بالعلم يسود ، وبالجهل يستعبد ، فأيهما فى محيط تقافتنا الضحل حقرنا واستبعدنا ، وأيهما عبدناه واستعبدنا ؟

يجيبك المسيح قائلا :" اعرف ماهو أمام وجهك ، فينكشف لك ما خفى عليك لأنه ليس هناك مخفى إلا وسينكشف "[٦٩].

فإن استعصت عليك رمزية الآية ثقافيا ، لا عقائديا ، فعد ثانية إلى وصف العبد واحتياجاته كما حددها السيد ، فستجد أنه الوصف الأدق لما يمكن أن نصف من خلاله منظومة الحياة فى عالمنا العربى والإسلامى ، إذ لاحظ أنه لم يأت على ذكر العلم أو التعليم ، أو الثقافة ، وهنا يتأكد لكل ذى عقل يعى صدق ما كتبه ـ روجيه جارودى ـ فى كتابه حوار الحضارات " إن التفوق الغربى لا يرجع إلى تفوق ثقافة، بل إلى استخدام تقنيات السلاح والبحر لأهداف عسكرية ،...ومنذ عصر النهضة الغربية وبامتلاك أسلحة أكثر تدميرا جدا من الأسلحة السابقة استعبد الغرب العالم وسيطر عليه بخنق جميع الثقافات "[٧٠].

تلك النتيجة التى تؤكد بما لايدع مجالا للشك أن العلم بوصفه أداة التعلم والمعرفة قد تم خنقه حتى بلغ درجة التوقف التام عن ضخ دم المعرفة نحو شرايين العقل العربى والإسلامى مما أدى إلى اصابته بحالة من الشلل الدماغى العلمى ، تمثلت فى تقرير التنمية البشرية عام ٢٠١١م ، والصادر عن مؤسسة ـ الفكر العربى ـ والذى يشير إلى : أن العربى يقرأ بمعدل ست دقائق سنويا ، بينما يقرأ الأوروبى بمعدل ٢٠٠ساعة سنويا. أضف إلى هذا تقرير التنمية الثقافية

الذى أصدرته منظمة اليونسكو عن عدد الكتب التى يتم نشرها وتوزيعها فى الثقافة العامة : ففى العالم العربى لا يتجاوز النشر سنويا ٥٠٠٠ عنوانا ، أما فى أمريكا وحدها فيتم إصدار ٣٠٠ألف عنوانا، وهذا يوضح لنا مدى الكارثة الثقافية التى يعيشها عالمنا العربى والإسلامى ؛ فالأمر لايقف عند هذه الأرقام المفزعة، بل ماهو أشد فزعا نجده عند مطالعة عدد النسخ المطبوعة من الكتاب الواحد ، ففى عالمنا العربى يطبع ما بين الألف والألفين ، وفى حالات الاستثناء النادرة يطبع من الكتاب خمسة ألاف نسخة ، أما فى العالم الغربى فإن النسخ المطبوعة من كل كتاب تتجاوز الـ ٥٠الف نسخة من العنوان الواحد . وهذه الأرقام تعطى مؤشرا لمتوسط معدل القراءة فى العلم العربى ، حيث لايتعدى ربع صفحة للفرد سنويا - ، ذلك بحسب نتائج خلصت إليها لجنة شئوون النشر التابعة للمجلس الأعلى للثقافة فى مصر؛ وهى نتيجة تتناسب مع الدقائق الست ؛ أما فى العالم الغربى فإن الأوروبى يقرأ ٣٥ كتابا سنويا ، ويقرأ الإسرائيلى ٤٠كتابا سنويا ، بحسب تقرير التنمية البشرية الصادر عن منظمة اليونسكو.[٧٠] . فإن كانت هذه النتائج الاحصائية التى جمعت بين الاحصاء المحلى والعالمى ، إن كانت هذه حقيقة القراءة ومكانة الكتاب مفتاحا العلم والتعليم ، مفتاحا الثقافة وتربية العقل فى بلادنا ،إن كان الأمر حقا كذلك ، وإنى على ثقة بأنه كذلك ، فهذا يعنى أننا أمة بلا هوية ، بلا عنوان ، فإن يصدق فينا قول القائل : " نحن ما نقرأ ، وقل لى ماذا تقرأ ، أقل لك من أنت "[٧١] . فمن أنت ؟ وأنت لاتقرأ !؟ ، من نحن ؟ ونحن لا نقرأ ؟

التعليم بين المظهر والجوهر :

فى علم المنطق القديم القائم على القياس الأرسطى المقدمات الصحيحة تؤدى إلى النتائج الصحيحة ، وفى علم المنطق الحديث القائم على الاستقراء - الناقص - ، ما يصدق على الجزء قد يصدق على الكل ، وبالقياس والاستقراء ، العلم والتعليم ، المعلم والمتعلم ، الكل فى هذه المنظومة تابع لامتبوع ، الكل فى هذه المنظومة المتعددة الصور والأشكال تحصره وتحاصره قوانين بيروقراطية سرمدية أقسمت بكل الحروف الأبجدية " لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لأتينهم من بين أيدهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين "[٧٢] ،

ولولامخافة الوقوع فى تحريف القرآن عن قصد لختمت القسم بـ "ولاتجد أكثرهم بعالمين أومتعلمين"، فهذا حالنا شئنا أم أبينا ، فهل من علاقة بين جحود

شكروجحود علم وتعليم ؟ هل من علاقة بين قسم القوانين الحاكمة و المتحكمة ، لا أقول فى منظومة التعليم كاملة من المهد إلى اللحد ، وإنما أقول منظومة متحكمة فى عقول الأمة كلها ـ عربية كانت أو إسلامية ـ ماضيها وحاضرها ومستقبلها وبين القسم الشيطانى الإبليسى ؟ . إن الإجابة يصرخ بها الواقع فى كل جنبات حياتنا ، تصرخ بها الأمية بكل صورها القبيحة ، بداية من الأمية الأبجدية ، وليس نهاية بأمية أجيال قذفت بهم الجامعات خارج أسوارها ، يصارعون حياة قوامها العلم ، ثم العلم ، ثم العلم ، فلمن كانت وستكون الغلبة ؟ ؛ فإن نصرخ بها هنا ، فلن تكون أكثر من تحصيل الحاصل ، وتعريف المعرف ، وما ذلك إلا لإن الإجابة زفت إلى العالم كله ، حين وصمنا بالجهل عند صدور ترتيب دول العالم من حيث الاهتمام بالتعليم والمعلم والمتعلم ، فكنا ومازلنا ـ بلا خجل ، بلا حياء ـ آخر آخرها ، أو خارج خارجها ؛ نتأرجح بين المنزلتين فى كل درجات العلم ، وكل مراحل التعليم جامعى أوقبل جامعى .إننا خارج التصنيف، خارج تصنيف الحياة، خارج تصنيف العلم على الرغم من غابة المدارس التجريبية واللغات والدولية ، رغم المدارس الأمريكية والألمانية ، الإنجليزية والفرنسية ، الصينية واليابانية ، إذ وفقا لما أعلنت عنه وزارة التربية والتعليم من احصاء لعدد مدارس الجمهورية "أن اجمالى المدارس فى العام الدراسى٢٠١٧/١٧/١٦ بلغ٤٥ ألفا ٢٧٩مدرسة منها، ٢٣٩٧مدرسة رسمية للغات، يدرس بها ٧٤٩ ألفا و٢٧٥تلميذا وتلميذة وأكثرمن٧٣٨٥ مدرسة خاصة ، يدرس بهم ٢٠٣٢٦٧٩ تلميذا وتلميذة "[٧٣]

وفى التعليم الجامعى أصدر المجلس الأعلى للجامعات احصاء يثبت فيه وجود أكثر من عشرين جامعة خاصة ، منها وأشهرها :" الجامعة الأمريكية ،الجامعة البريطانية، الجامعة الفرنسية ، الجامعة الألمانية ، جامعة الأهرام الكندية ، الجامعة الروسية ، الجامعة المصرية الصينية،...إلى غير ذلك من الجامعات ، أضف إلى هذا أكثرمن١٥٣معهدا للتعليم العالى" [٧٤] متوسط ما ينفقه الطالب الواحد فى هذه الجامعات الخاصة فى العام يماثل تقريبا ماينفق على مائة مثله من طلاب الجامعات الحكومية العامة . ومازالت التساؤلات تترا بداية من التساؤل الحائرعن سبب خلو قائمة الجامعات الخاصة والأجنبية فى مصر من اسم الجامعة اليابانية ،على الرغم من ورود اسمها فى كتاب ـ المرشد الأمين ـ للدكتور حامد عمار والدكتورة صفاءأحمد ضمن احصاء يضم أشهر الجامعات الأجنبية فى مصر [٧٤] ؛ ثم التساؤل الأقل أهمية ـ من منظور ثقافتنا العلمية الغربية ـ إلى أى ثقافة ينتمى خريج هذه

الجامعات الأجنبية ؟ إلى الجامعة التى يدرسون بها أم إلى الوطن الذى يحتضنها بين جنباته ؟ وما موقع اللغة الأم بها ؟ أم إن اللغة لا موقع لها من الإعراب بها ـ عفوا ـ من التعليم بها ؟[٧٥]؛ وكذا الدين ما موقعه ، إن كان للدين موقعا فى العلم والتعليم والثقافة العلمية ؟ وإن كانت تلك الجامعات ذات تخصصات علمية تحمل طابع الخصوصية ، خصوصية فى عقول مرتديها أساتذة وطلابا ، وفى المناهج الدراسية، وفى طرق التدريس ذات الصبغة العالمية ـ إذ المفترض أن المنظومة العلمية كلها تساير تكنولوجيات وعلوم العصر، توافقا مع الدول الغربية التى جعلت من اسمائها علما على تلك الجامعات ـ كـ :علوم الطبيعة والبحوث النووية ،علوم الكيمياء والبحوث الكيمائية ،علم الأحياء وبحوث علوم الحياة التى جعلتها الصين قبلتها منذ مطلع القرن [٧٦] ، علم الفضاء وبحوث علوم الفضاء، ...الخ ، فأين إذا البحوث ؟ أين النتاج والنتائج العلمية ؟ أين كوادرعلماء المستقبل المبدعين فى فنون العلوم التى درسوها ؟ أين وأين وأين ؟ إن ألف ألف أين لاتكفى ؟ ومع كل هذه التساؤلات تأتيك الإجابة عنها جميعا ملخصة ـ كمناهج طلاب العلم ـ ، بلغة عربية فصيحة ، فى جملة واحدة قاطعة "خارج التصنيف ". خارج تصنيف جامعات العالم المتقدم :الأمريكية الإنجليزية الفرنسية الألمانية الصينية ، رغم أنهم جميعا بيننا ، جزء من أهم أجزاء ثقافة عقولنا ، لكن تماثل الأسماء ، وظرفية المكان، لاتعنيان بالضرورة وحدة النتائج ، لاختلاف المناخ وتغايرالمناهج والمنهج ، واتحاد الغايات . ففى الأصل تعليم ينشد الجوهر، وفى المثل تعليم جوهره تأليه المظهر، فى الأصل تعليم يربى ويربى الاستقلالية والحرية ، وفى المثل تعليم يهدف إلى ترسيخ التبعية ، ترسيخ الاستعباد والاستبداد قهرا للعقول،حذفا من قواميس اللغة ، من مخزون العقل كلمة الحرية ، معانى الحرية ،علمية كانت أوثقافية ، سياسية كانت أواجتماعية . إن المداس والجامعات المسماة بأسماء الدول الغربأمركية ، ماهى إلاساريا ترفع عليها أعلام دول الاستعماركى تظل الهوية بكل أبعادها قيد التبعية الاستعمارية لتذكرنا دائما بأننا لازلنا تحت حكم الاحتلال .

ثقافة التلقين وثقافة التزغيط :

تأكد لنا بما لايدع مجلا للشك أن للفكرفى ثقافتنا المعاصرة أصنام تعبد كما كانت تعبد فى الجاهلية من دون الله ، ولأنها أصنام فهى جامدة جمود الصخر الذى قدت منه ،ليست حكرا على أمة دون أمة ، فقد سبقنا إلى تأليهها وعبادتها الغرب فى عصوره المظلمة ، لكن مع مطلع عصر النهضة بدأ تحطيم هذه الأصنام التى كان

معظمها فيما أسماه الفيلسوف الإنجليزى فرنسيس بيكون ١٥٦١- ١٦٢٦م - بالأوهام . إنها أوهام الفكر الأربعة التى تلقى بالعقل فى دروب الوهم ، فتذهب به مذاهب تنأى به عن إدراك حقائق الأشياء بهتك ظلمة الجهل فى مختلف ألوان العلوم والفنون . فالصنم أو الوهم الأول يتمثل فى أوهام الجنس البشرى : تلك الأوهام التى تنشأ نتيجة إلى المغالطات القبلية التى يقع فيها كل أبناء الجنس البشرى بحكم طبيعتهم البشرية المتسرعة فى الميل إلى الخرافات بشتى أنواعها ؛ وأما الصنم أو الوهم الثانى فيتمثل فى أوهام الكهف : وهى الناشئة من الطبيعة الفردية لكل منا ، فلكل منا كهفه الخاص الذى قد يظل سجينا فيه ، ويحكم على الأشياء من منطلقه الذى يوقعه فى الخطأ ، وكلنا على هذه الشاكلة ؛ والصنم أو الوهم الثالث هو المتمثل فى أوهام السوق : وهى الناشئة عن اتصال الناس واجتماعهم بعضهم ببعض ، واسمها مستمد من عمليات التبادل التجارى التى تجرى بين الناس فى الأسواق ، والتى تشبه - من وجهة نظر بيكون - عمليات تبادل الأفكار وتداولها بين الناس عن طريق الألفاظ اللغوية ، تلك الألفاظ التى تتكون طبقا للحاجات العملية والتصورات العامية ، التى نحكمها تارة وتحكمنا هى تارة أخرى ؛وأما الصنم أو الوهم الرابع والأخير ، فتمثله أوهام المسرح : وهى الناشئة عن الأخذ بنتاج النظريات المتوارثة صاحبة المقام العلى والنفوذ الأقوى ، من مثل المذاهب الفلسفية والنظريات الخلقية والتربوية ، وهى التى تقبل دون مناقشة أو نقد . تلكم الأصنام التى يجب على العقل تحطيمها [٧٧].

إن هذه الأصنام أو الأوهام ليست مجرد أغاليط استدلالية - كما يقول بيكون - ولكنها عيوب فى تركيب العقل تجعلنا نخطئ فهم وإدراك الحقيقة ، وبغض النظر عن النقد الموجه لأوهام بيكون ،والذى لايتسع المقام هنا لمناقشته، تظل هذه الأوهام من الحقائق التى تغزيها وتتغزى عليها ثقافة الآخر ، يعيشها ويتعايش معها العقل العربى والعقل المسلم من خلال منظومة التعليم التلقينى،"حيث يغيب الحوارتماما فى أساليب تربيتنا الأسرية أومؤسساتنا التعليمية "[٧٨].

وهنا ينبغى التنويه على أن مفهوم فعل - التلقين - يختلف فى دلالته اللغوية التى حددتها بعض معاجم اللغة بـ"التعلم والفهم "، عن دلالته الشائعة فى الثقافة العربية وفى العلوم التربوية،من حيث كونه ذات دلالة على الحفظ والترديد بغير تدبروفهم ، برهان ذلك ربط الفعل بما قبله وما بعده،أى بسياق الموضوع الوارد فيه.واستخدام لفظ التلقين هنا بدلالة مفهومه الثقافى لااللغوى.

وبالعودة إلى الأوهام الأربعة عند بيكون ، وكونها من أهم أسباب عجزنا عن بلوغ حقائق الأشياء ، واعتمادنا على ثقافة التلقين دون حوار، من أجل ذلك كله لم يكن مستغربا أن أجد نفس الأوهام فى كتاب المرشد الأمين لشيخ التربويين الدكتور/ حامد عمار والدكتورة صفاء أحمد ، ففى الفصل الخامس عشر من الكتاب ، وتحت عنوان بين التفكير السلطوى والتفكير العلمى قالا : " إنه مما يعطل الإيمان الراسخ بالأهمية البالغة لتنمية عمليات التفكير العلمى ، اختلاطها ببعض أنماط التفكير السائد من المصادر المترسبة السائدة ، .."[٧٩] ثم ذكرا اثنتى عشرنقطة يخضع لها العقل فى بناء عملية الفكر ، هى فى جوهرها تقسيم وتفصيل للأوهام الأربعة عند بيكون ؛ وقد انتهيا إلى قولهما : " يعزو فريق من المفكرين بعض عوائق التجديد وسيادة أنماط الحفظ والتلقين للرصيد المعرفى من جيل إلى جيل فى تعليمنا إلى ما شاع من طرائق ومناهج التعليم الأزهرى التقليدى ، ونرى ظاهرة الجمود والحفاظ على الموروث حين نقرأ أن فلانا قد ـ تلقن ـ العلم على فلان من العلماء ، ثم أجازه على تلقينه "[٨٠]

وهنا يرد فعل ـ التلقين ـ كما نوهنا سلفا وفق المفهوم الشائع بأنه ـ الحفظ دون الفهم ـ ففى النص إسقاط ما كان لنا أن نمر عليه دون أن نرده على قائليه ، لأنهما أرادا من خلاله تحميل الأزهر تبعة جمود الفكر ومحاربة التجديد فى البلاد ـ هذا مايفهم من سياق الكلام ـ ، وهو اتهام يبطل ببطلان التخصيص لعموم البلوى فى مطلق التعليم بالبلاد كما أسلفنا القول بالدلائل والبراهين ؛ إلا أن النص السابق يشتم منه رائحة العمد فى إدانة الأزهر، عالما ومتعلما ، ذلك أنا نقول : تلقى العلم على فلان ، وأجازه على علمه ، وعندما يستبدل فعل ـ التلقى ـ بفعل ـ تلقن ـ وأجازه على ـ علمه ـ بأجازه على ـ تلقينه ـ فكأنا أمام عقل يلقن العلم كرها أو طوعا ، ويحفظه دون فهم ، وأمام عالم يلقن كما تلقن ، ثم يجيز متلقنا على مالقنه وحفظه دون فهم ؛ إن العبارة بهذه الصياغة توحى للقارئ أننا أمام محتضر فى سكرات الموت نلقنه شهادة التوحيد فى النزع الأخير، فهذا خبر الأموات لا خبر الأحياء ، وليس طالب العلم الأزهرى بمحتضرنلقنه الشهادة ، وليس أستاذه بمعلم يعلم ميت ، وإلا فإن الأمة المصرية والعربية كلها تحتضر ، لأن كل علومها قائمة على التلقين ، وأجيزت على تلقينها ممن لقنها ، بل إن ماهو أشد وطأة وأعظم خطرا على الأمة كلها فى طرق التعليم هو التعليم القائم على منهج أسميه هنا بمنهج ـ التزغيط ـ ذلك المنهج الذى لن

تجد له أصلا علميا للتعريف به فى كل مستويات التعليم الجامعية وما قبل الجامعية .
وتبقى كلمة ـ قبل الاستفاضة فى بيان القصد بمنهج التزغيط الذى يفوق ويتفوق على منهج التلقين ـ متعلقة بحفاظ الأزهرى على الموروث التراثى حتى وصل إلينا وإلى شيخ التربويين ليستشهد به فى معظم مؤلفاته ، إن لم يكن كلها ـ التى بين يدى ـ إنه التراث الذى يثبت أصلة النبت بجذوره الضاربة فى أغوار الماضى، إنه ماضى الأمة الذى أؤتمن على حضارتها ، على علومها الفريدة وثقافتها الأصيلة ، وإن أمة بلا ماضى ، لهى أمة بلا حاضر بلا مستقبل .
فإن ثقلت كلماتى على أذن سامعيها ، أو ثقلت على ألسنة قارئيها من الأساتذة التربويين لنقد شيخهم ، فماذا عن تعاليم شيخ شيخهم ـ باولوفريرى ـ فى التعليم من أجل الوعى النقدى ، أوليس هو القائل :" إن الوعى الناقد يتكامل ويتشابك مع الواقع، والوعى الساذج يفرض نفسه على الواقع ، بينما الوعى المتعصب الذى تؤدى سذاجته المرضية إلى تصور اللامعقول ، يتكيف مع الواقع "[٨١] ، وهو القائل أيضا : " إن التوجه الذرائعى النفعى فى التعليم ، حتى فى أعلى مستويات التخصص، يؤدى إلى استئناس الوعى وتدجينه ، عن طريق عدم الارتباط المنطقى المتواصل بين الاختزال ، والانحصارفى تعلم التخصص من ناحية ، وقراءة الكون الذى يقع فى سياقه ذلك التخصص من ناحية أخرى"[٨٢].
وأخيرلقد قال الدكتور/حامدعمارنفسه :" تتكامل تنمية الإنسان ووعيه بإنسانيته من خلال شحذ مختلف حواسه وطاقاته المجسدة فى عقله المفكر والمدبر والمتأمل والمتخيل والناقد"[٨٣].
وحسبى تفعيل هذه النصيحة وأناأضع أمام القارئ مفهوما متكاملا لمنهج جديد فى مفاهيمه، جديد فى صياغته،قديم فى تطبيقه وممارسته،إنه منهج ـالتزغيط العلمـ مختتما به هذا المبحث وبادى ذى بدء أقول: إن كلمة التزغيط لم أعثر لها على أثر فى معاجم اللغة العربية ، ولست أدرى إن كان هناك بعض كتب اللغة قد ذكرتها أم لا ،كما لم أجد لها أصلا على مؤشر البحث ـ جوجل ـ لكن تبق الكلمة أصيلة فى الموروث الثقافى الشعبى المصرى ، إذ هى ذات تفرد لا مثيل لها فى الثقافات الأخرى ، كما وأنها من حيث الفعل ذات دالة على فعل الإطعام القسرى ـ أى بالقوة ـ مورست أول ما مورست فعليا مع طائرأو مجموعة من الطيور التى أحل الله لنا طعامها ، خاصة طيور البط والأوز، وربما كان هذا سببا فى أن كتابة كلمة ـ تزغيط

ـ على مؤشر البحث ـ جوجل ـ لا يعطيك إلا كلمة واحدة هى ـ بط ـ . ولتوضيح ذلك يجب أن تعلم بأن فعل التزغيط يبدأ على إثر تحديد نوع الطائر المراد تزغيطه ، فربة البيت ـ إذ هى فى الغالب من تقوم بهذا الفعل ـ تختار الطائر بمواصفات معلومة عندها سلفا ، تعد حبوب الإطعام، تسارع إلى الإمساك بالطائر ، تقيد حركة القدمين والجناحين ، مع فتح الفم فى وضع رأسى ، يلى ذلك وضع الحب فى الفم مع دفعه دفعا بإصبع اليد إلى البلعوم حتى يبتلعه الطائر ، يتم ذلك فى أوقات محددة بكمية من الحب محددة سلفا ولمدة محددة . وتكمن فلسفة عملية التزغيط هذه فى كونها وسيلة أو حيلة يحتال بها المصريون على الطيورلتحقيق غاية متمثلة فى زيادة الحجم والوزن والدهن للطائر بسرعة لن تتوفر له عن طريق تناوله الطعام بإرادة حرة . وتبقى الإجابة عن سؤالين هما مفتاحا الوقوف على ماهية منهج التزغيط كمنهج فاعل منذ زمنن بعيد فى مسار العملية التعليمية عربيا وإسلاميا .

السؤال اللأول : ما الغاية النهائية لعملية التزغيط ؟

السؤال الثانى : ما هو التحول الرئيس فى حياة الطائر الذى يقع تحت طاولة التزغيط؟

إن الإجابة على السؤال الأول لاتحتمل لا قليلا ولا كثيرا من التفلسف ، إذ الغاية النهائية بداهة الذبح . نعم يذبح ويطهى حتى يصبح وليمة دسمة على مائدة الطعام .

أما الإجابة عن السؤال الثانى فهى تمثل جوهر عملية التزغيط ، إذ هى وبدون فلسفة تتمثل فى أن الطائر منذ بدء عملية التزغيط يمتنع امتناعا تاما عن تناول الطعام بنفسه ، وإن أوشك على الهلاك لايلتقط بمنقاره أبدا الحب الذى يراه تحت قدميه .

وهنا يكمن أيضا جوهرفلسفة المنهج التزغيطى فى بناء العملية التعليمة كلها ،من ألفها إلى يائها ، فمنذ بداية المراحلة التعليمية الإلزامية الأولى تبدأ الممارسة الممنهجة لعملية تزغيط العقول التى تستمردون انقطاع حتى منتهى التعليم الجامعى بالحصول على الشهادة ، بالحصول على الإجازة العليا ، التى هى أيضا منتهى آمال المتزغط ، فهاهنا يتوقف التزغيط ، يتوقف التعليم ، تتوقف عملية القراءة ، تتوقف الحياة . والنتيجة أن ما تهدف إليه الغاية القصوى من تبنى ثقافة تزغيط الطيورهى الذبح ، نعم تذبح لتكون وليمة على مأدبة من زغطها ، من ذبحها ، ونحن بالمثل لسنا أعلى قدرا من الطيورالمذبوحة ، إذ

انتهاج ثقافة تزغيط العقول فى العملية التعليمية والتربوية غايتها العظمى الذبح لنا ، الذبح للعقول ، الذبح للأمة بأسرها ، لماضيها الذى توارثناه مشرقا ، ولمستقبلها الذى لم تشرق شمسه بعد .وإن إيقاف عملية التزغيط قبل بلوغ منتهاها ، وإن كان يسمى باسم التسريب من التعليم ، إلا أن الواقع يقول : إنه الهروب من التزغيط من الذبح ، إلى مجهول فى عالم جهول .

الغزو الثقافى فى السياسة والاقتصاد :

السياسة والاقتصاد ، كلمتان منفصلتان بينهما حرف عطف يقتضى وفقا لقواعد اللغة العربية المغايرة بينهما ، إلا أن هذه المغايرة فى واقعنا المعاصر ليست أكثر من مغايرة شكلية لوجهى العملة الواحدة ، فإذا وجدت السياسة وجد الاقتصاد ، وإذا وجد الاقتصاد وجدت السياسة ، فلا سياسة بلا اقتصاد ولا اقتصاد بلا سياسة ، هى إذا علاقة لزومية بلغة المناطقة ؛ وبلغة الثقافة العامة ، الاقتصاد عصب الحياة ، والسياسة هى المحركة له ؛ أما لغة الثقافة الأكاديمية فستعود بنا إلى مقولة الإمام " كل من طلب غاية بغير علم لايصل إليها " ، فالسياسة علم والاقتصاد علم ،؛ " والدراسات السياسية تتم على مستويين ، مستوى الغايات ومستوى الوسائل . والأول ينتمى إلى الحاجات الأساسية ويمكن تقسيمه إلى جثمانى وعقلى واجتماعى ...وعلى هذا المستوى تتعلق السياسة باكتشاف أوجه الانتظام فى الغايات والحاجات التى تنبثق منها هذه الغايات . وهذه الحاجات مشتركة بين الجميع ، على الأقل فى طابعها العام ... ويتعلق علم السياسة فى المستوى الثانى بطريقة عمل الأنظمة التى ينظم فيها التعاون . ويسعى إلى تفسير الصور التى تأخذها وأن يختبر كفايتها فى تحقيق النتائج "[٨٤] سواء أكانت هذه الأنظمة قائمة على أسس النظم الاشتراكية أو الشيوعية أو الديمقراطية أو الدكتاتورية فإنها تسعى إلى غايات محددة سلفا بوسائل مختلفة ،كلها يدورفى فلك الأميرالميكافيللى.والحال كذلك فى علوم الاقتصاد التى تعرف فى المقام الأول بأنها " فن يهدف إلى الكشف عن أحسن الوسائل لتدبير أمور الدولة المالية ، ومن هذا الوجه يقال إنه علم موضوعه الثروة من حيث انتاجها واستبدالها وتوزيعها واستهلاكها "[٨٥]

وكل هذه الآليات المتحكمة فى الثروة تخضع فى ممارستها لشكل من أشكل النظم السياسية التى تداربها ومن خلالها منظومة الدولة كلها وفقا لما يختاره الساسة ، أو

يفرض عليهم من خلال سياسات الدول المستعمرة ، سواء أكان الاستعمار عسكريا بالقوة ،أوعلميا ثقافيا ـ بتأهيل العقل لتقبله والإنضواء تحت لوائه ـ فكل منهما يؤدى إلى فرض نفوذه الاستعمارى على عالم الاقتصاد داخل مستعمراته . وإن كنا قد انتهينا للتو من بيان حال العلم والتعليم والمتعلم فى مجتمعاتنا العربية والإسلامية ، وما أصاب المنظومة من علل وأمراض بلغت حد الأوبئة ، جراء الغزو والاستعمار، فالسؤال الذى يندرج تحت مسمى الأسئلة الساذجة هو : هل تأثرت العلوم السياسية والاقتصادية بما تأثرت به كافة العلوم من تبعية وتلقين وتزغيط ، أم كتب لهما النجاة من الغرق فى هذا المستنقع ؟

الإجابة : لو كان قد قدر لهما النجاة من هذا المصير ما آلت أحوال أمتنا العربية والإسلامية إلى ما آلت إليه من تردى فى المجالين ؛ فلقدغرقتا غرقتا غرقتا ، هكذا يصرخ العالم العربى والإسلامى دون أدنى شك منذ زمن بعيد ، هكذا صرخ بها فى الماضى ويصرخ بها فى الحاضر؛ والماضى والحاضر مقدمات للنتيجة التى تنتظرنا فى المستقبل . وإن كانت تلك الإجابة من بداهة الثقافة الشعبوية بين عموم الشعوب التى تصطلى ليل نهار بالسياسات الاقتصادية المملاة علينا من دول ومنظمات السيادة والسياسة العليا تحت ادعاءات يكذبها التاريخ والواقع وأصحاب الضمائر الحية من مثل التنمية و الاصلاح الاقتصادى . وللتأكيد بالبرهان الدامغ على أن هذا الذى نحن فيه تبعية استبدادية رسختها بالفعل الأوبئة العلمية ، اقرأ معى تلك العبارة التى جاءت فى بيان الفريليمو- جبهة تحرير موزمبيق ـ عام ١٩٦٨م والتى تقول : " التعليم فى مجتمع مستعمر لمجرد خدمة المستعمرين .. والتعليم فى نظام للرق ليس سوى مؤسسة لتشكيل الرقيق "(٨٦) .

دلل على مصداقية هذا القول ما أوردته المراجع العلمية الاقتصادية التى كتبت بأقلام مفكرين تجردوا عن النزعات العرقية مع إلزام أنفسهم بالحيادية العلمية ، فكان التوصيف الدقيق لمنظومة نهب الثروات الطبيعية والبشرية التى مارسها العالم الغربأمريكى من خلال استعماره للقارة الافريقية ، من ذلك ما قاله والتررودنى فى كتابه ـ أوروبا والتخلف فى افريقيا ـ : لقد نهض التطور الاقتصادى الأمريكى مباشرة ، حتى منتصف القرن التاسع عشر ، على تجارة خارجية كان الرق محورها " (٨٧).

ويقول بول هيرست وجراهام طومبسون في كتابهما ـ مالعولمة ـ : " إن تجارة العبيد المبكرة كانت نوعا من الهجرة القسرية ، إذ يقدر عدد العبيد الذين جيء بهم من افريقيا إلى أمريكا بنحو ١٥ مليونا قبل العام ١٨٥٠"[٨٨]، وسواء أكان الرقم صحيحا أم لا ، على اعتبار أن بعض المؤرخين الغربيين ذكر أكثر من ضعف هذا الرقم . ويعد الكاتب الأمريكى الأسود البشرة ، الذى اعتنق الإسلام ـ أليكس هيلى ـ بروايته التى هزت أرجاء العلم ـ جذور ـ والتى شاهدها على شاشة التلفاز كـ ـ مسلسل تلفزيونى ـ مئات الملايين فى كافة أنحاء العالم ،فى مطلع ثمانينات القرن الماضى ، كما بيعت كذلك ملايين النسخ لم تضمنته من حقيقة تجارة الرق ـ ووسائل اصطياد واستعباد البشر للبشر من أجل التنمية الاقتصادية فى قطر على حساب أقطار ، والتنمية لشعب على حساب أمم وشعوب [٨٩] .

إنه عين النموذج ، أو قل إن شئت هى نفس الوسائل القديمة فى ثوب عصرى جديد اطلقوا عليه مسميات عدة ، لكن يبقى استنزاف البشروالشعوب ـ ماديا ومعنويا ـ سمة طاغية من سمات الثقافة الغربأمريكة فى ظل الآلة العسكرية وفى ظل الرأسمالية المتوحشة التى تأكل فى طريقها الأخضر واليابس .وإذا كانت النظريات و الأفكار الاقتصادية هى ـ وكما يقول جون كينبث ـ أستاذ الاقتصاد فى هارفارد : " فى الأساس نتاج لزمانها ومكانها ، ولا يمكن النظر إليها منفصلة عن العالم الذى تفسره" [٩٠] فكيف تفسر لنا نظريات عالم اليوم السياسة والاقتصادية الواقع السياسى والاقتصادى بكل أبعاده الشاسعة وتناقضاته الفاضحة المتبجحة ؟ وهل لنا أن نسأل أين نحن من هذا التفسير، أم سيكون السؤال مثل ما سبق من أسئلة يغلب عليه طابع السذاجة بحكم القراءة البدهية للواقع ؟

من هنا نعود بالقارئ مرة ثانية إلى السياسة والمشتغلين بها ، حيث نستجلى الأمر من قول ابن خلدون فى مقدمته :" والسياسة يحتاج صاحبها إلى مراعاة ما فى الخارج وما يلحقها من الأحوال ويتبعها .." [٩١] ومن قول أرسطو فى السياسة :"إن الجماعة السياسية لم تؤلف فى الواقع إلا لغرض الثروات "[٩٢] من أجل ذلك باتت "السياسة كسائرالعلوم الأخرى لايمكن أن تضبط جميع التفاصيل" [٩٣].

إذا نحن وفق هذه النصوص أمام مفهوم للسياسة يتسع ليشمل كل شيء من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، إنه عالم من المتناقضات الذى لايمكنك التعايش معه إلا من خلا ل أمرين ، إما الصدام ، وإما الطاعة . الحالة الأولى ـ أى ـ حالة الصدام :

كتلك التى حدثت فى الحادى عشرمن سبتمبرلعام ٢٠٠١م من تفجيرلبرجى التجارة العالمية فى الولايات المتحدة الأمريكية ، تلكم الحالة الصدامية التى استهل بها القرن الـ ٢١ ، والتى عجز العالم الإسلامى والعربى بكل ما يملك من عقول ذات ثقافات متنوعة على أن يستقرأ جيدا فى ضوء المتغيرات التى انتهى إليها القرن الـ ٢٠ الديالكتيك ـ الحوار ـ بين السياسة والاقتصاد من جهة ، وبين الحرب والدين من جهة أخرى ، أو ربما تقاعسوا عن ذلك الاستقراء عمدا من باب ـ الطاعة ـ حيث حشد آلهة السياسة الغربأمريكة كل القوى الاستعمارية لردع من شق عصا الطاعة ، فلقد أعلن حاكم الامبراطورية الأمريكية ـ بوش الابن ـ عن " شن حرب صليبية جديدة ضد المسلمين لم اقترفت أيديهم من إثم اغتيال إله التجارة العالمية ، والنيل من هيبة إله السياسة ، ومن هيبة إله الحرب ومن هيبة إله الثقافة "[٩٤] ؛ وما تلك الحرب الصليبية الجديدة إلا وسيلة لغاية ، بل لغايات أكبروأكبر ، أعلن عن واحدة منها حاكم الإمبراطورية الإنجليزية ـ التى غربت شمسها فعمدت إلى عبائة الإمبراطورية الأمريكية كى تنال بعض الدفء من شمسها التى لم تغب بعد ـ " ففى خطاب تبشيرى إلى مؤتمر حزب العمال الذى عقد بعد فترة قصيرة من حادثة١١ سبتمبر أطلق تونى بلير ـ رئيس وزراء إنجلترا ـ إشارة إلى المضى قدما فى رحلة العودة إلى النظام الاستعمارى ليأخذ مكانة محترمة "[٩٥] فى القرن الحادى والعشرين .

فمن كان على بينة مما حدث لغزو واستعمار لأفغانستان بحجة ـ بن لادن وطلبان ـ ، من كان على بينة مما حدث لغزو واستعمارللعراق بحجة ـ صدام وامتلاكه لأسلحة نووية ـ من كان يدرك هذا وذاك مع ما سبقه من إرهص تمثل فى حرب الخليج الأولى مطلع تسعينيات القرن العشرين ، يدرك أن مجموع هذه المقدمات كانت ضرورة غربأمريكية ، لقد كانت وبحق وسائل لغايات أكثر أهمية من مجرد فرض السيطرة على أبار النفط ، أقلها من حيث الشأن ما كان من أمرانعقاد قمة أمريكية إسلامية فى العشرين من شهر مايو للعام المنصرم ٢٠١٧. ففى أول رحلة خارجية له بعد تنصيبه إمبراطورا على عرش الولايات المتحدة الأمريكية ، وبحضور٥٦دولة ٥٥+١، عقد على تراب المملكة السعودية ـ أرض بيت الله الحرام وموطن ختم النبوة والرسالات ـ عقد المؤتمرالمسمى ـ بمؤتمرالقمة الأمريكية الإسلامية ـ برئاسة ـ دونالد ترامب؛ وأبدا لم تكن غايته مجرد مبايعة حاكم وملوك و

أمراء العالم العربى والإسلامى له كحاكم على العالم ، مع تقديمهم لكل فروض الطاعة والولاء ، مصحوبة بالهدايا التى تليق بمكانة حاكم هو للتأليه أقرب منه إلى حكم دولة ، فكانت العطايا على استحياء أقلها قيمة الـ٤٦٦مليار دولارا،هدية العرب والمسلمين من الأموال الفائضة عن حاجة شعوبهم التى أكل أكباد أبنائها الجهل والفقر والجوع والمرض ، للاقتصاد الأمريكى الذى يعانى التخمة من نهب ثروات العالم الأفقر بقوة السلاح ، كقاطع طريق أوبلطجى يروع البشر المسالمين أو الخانعين أمام سلب أرزاقهم وأرواحهم على السواء ." لقد استمرت البلاد الفقيرة فى دعم البلاد الغنية "[٩٦] ، هكذا تقول تقارير التنمية حول العالم ، وهكذا جسد هذا المؤتمر ثقافة العصرتجسديا تعجز كل كلمات اللغة عن وصفه مهما استخدمت من صور بلاغية كالتشبيه والاستعارة والكناية والمجاز، لقد عانق المؤتمربين كل ألوان الثقافات ، بداية من ثقافة الحروب العسكرية إلى ثقافة الحروب السياسية والاقتصادية ، حتى بلوغ حروب الثقافة الدينية ، مغلفة كلها بغلاف من ثقافة الحروب العلمية . كل هذا وإن عجزت لغتنا عن وصفه باستخدام مفرداتها ، تبقى لغتهم لتعبر تعبيرا صادقا عن ثقافاتهم ، عن غاياتهم ، فهى من حيث القدرة الأقدرعلى الوصف والتوصيف فى جملة واحدة ، تلك الجملة المستخلصة من قول تهديدى لمسئول اقتصادى أمريكى فى وجه سياسى أفغانستانى :" إن أفغانستان يمكن أن تصبح مثل السعودية ، مستعمرة نفطية بدون ديمقراطية ،.."[٩٧] ، وهذا ما أكدته إبنة ترامب عندما سخرت من سلوك العرب إبان المؤتمر ، على وسائل التواصل الاجتماعى واصفة اهتمامهم بثقافة الجمال والجسد ، فى الوقت الذى كانت أموالهم تنهب من قبل أبيها ، ثم أطلقت مقولة هى أقرب إلى مقولة التهديد السابقة للأفغان ؛ فإذا كان من المعلوم بداهة ماهى بدائل اليمقراطية ، ذلك المصطلح السياسى الذى تشتعل من أجله الثورات وتندلع له الحروب ، ويتشدق به العالم الغربأمريكى، قد شغل العالم منذ القدم حيث ذكره أفلاطون فى الجمهورية ، وقال بأن " منشأ الديموقراطية فى فوز الفقراء بالحرية ، وتأسيس الجمهورية ، التى تعامل جميع الأفرد بالمساوة سواء أكانوا متساوين أو لا "[٩٨]

وذكرأرسطو خمسة أنواع للديمقراطية :" الأول شيمته المساواة بين الفقراء والأغنياء ، والثانى فى تلقد الوظائف العامة كحق لكل من يستحقها ، والثالث فى الوظائف العليا فكل المواطنين الذى لانزاع فى صفتهم يصلون إلى وظائف الحكم ،

والقانون هو صاحب السلطان على جهة السيادة ، والرابع فى الترشح للحكم ، إذ يكفى لكى يكون المرأ حاكما أن يكون مواطنا بأى صفة كانت والسيادة فيه أيضا للقانون ،الخامس يقبل بماسبق ولكن فيه تنتقل سيادة القانون إلى الكثرة التى تقوم مقامه ، وحينئذ إنما تكون الأوامر الشعبية هى التى تقضى لا القانون "[٩٩] وهذا ما يعرف فى الديمقراطية بـأنه : " حكم الشعب بالشعب وللشعب " .

وغياب الديمقراطية يعنى إحلال النظم الديكتاتورية الاستبدادية التى لاتقبل منك إلا الطاعة ، ثم الطاعة،ولاشيء غير الطاعة. وفى سبيل تحقيق الغايات تباح كل الوسائل،فمن يحكم بلاده وفق نظام ديمقراطى،لايستحيى أن يؤيد ويدعم فى بلادغيربلاده النظم الديكتاتورية الاستبدادية ، زاعما فى ذات الوقت أن دوافعه هى الدفاع عن الحريات وعن الديمقراطية . يقول روجيه جارودى : " يسود قانون الأقوى تحت مسوغ الدفاع عن الديمقراطية ، وكل دكتاتوريات العالم عندما توظف، فإنها توظف لخدم المصالح الأمريكية "[١٠٠] . وربما كان العنوان الذى اختاره الدكتور/ فؤاد زكريا فى كتابه ـ خطاب إلى العقل العربى ـ ملخصا لفلسفة التبعية الاستبدادية ،إذ قال تحت عنوان ـ مرض عربى اسمه الطاعة ـ : " لو تساءل المرء عن الصفة الأخلاقية التى يراد من الإنسان العربى أن يتحلى بها فى جميع مراحل عمره ، وفى جميع الميادين التى يعمل بها من خلال حياته الخاصة والعامة لكانت هذه الصفة وعلى الأرجح هى ـ الطاعة ـ " [١٠١]، لكن الطاعة عنده لها فلسفتها الخاصة ، إذ تكاد تلامس ماسبق لنا ذكره من حيث مكانتها فى ثقافة العقل العربى والإسلامى ، إذ يرى أن:" الطاعة ـ فى ثقافتنا العربية ـ فضيلة الفضائل ، وهى الضمان الأكبر للتماسك والاستقرارفى المجتمع ،وهى الدعامة الأساسية لاستتباب الهدوء والسلام بين الأفراد ، وبين كافة المؤسسات التى ينتمى إليها الإنسان العربى، والطاعة هى الفضيلة الصامدة التى كان يعتز بها التراث العربى فى أقدم عصوره ، ومازالت فى نظر كتابنا وموجهينا ومعلمينا المعاصرين وساما على صدر كل من يتحلى بها ، إنها الفضيلة التى تبدوفى نظرالثقافة العربية ، صالحة لكل زمان ومكان .. وتعمل المؤسسة التعليمية ذاتها على توطين فيروس الطاعة فى خلايا الأدمغة الفتية الغضة "[١٠٢].

ولئن أصاب الدكتور زكريا فيما قال ، إلا أن اللغة العربية التى نزل بها القرآن أول ما نزل فى الأمة العربية ، أبدا لم يدع المجتمع إلى الطاعة العمياء ، ولم يرسخ هذا

الخلق بإطلاقه ، بل قيدت الطاعة ، شرعا وعقلا ، وحسبنا ماجاء فى الحديث الصحيح من قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :" لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق"[١٠٢] . والآيات فى هذا السياق كثيرة ومتنوعة بين التحلى بأخلاق الطاعة " من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا "[١٠٣] " ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا "[١٠٤] ؛ وبين الامتناع عن الطاعة " وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا "[١٠٥] .

والمقام لايتسع للمزيد من المناقشة والرد ، ولكن حسبنا أن نشير فى هذا المقام إلى ماختم به الدكتور زكريا حديثه عن ثقافة الطاعة حيث قال : "لكن أهم الميادين التى ينخرط فيها الإنسان العربى بعد أن يبلغ مرحلة النضج هو ميدان السياسة والحكم ، وهنا يصبح مبدأ الطاعة ـ فى وطننا العربى ـ هو السائد والمسيطر بلا منازع . فالأنظمة الديكتاتورية المتسلطة لا تريد من

المواطن إلا أن يكون مطيعا لأوامر الحاكم ، وأداة طيعة فى يده ، .."[١٠٦] .

وما ذكره الدكتورفؤاد زكريا لا يختلف حوله العقلاء فى العالم العربى والإسلامى ، وما أردف به بعده مباشرة يكاد يكون صورة كربونية مما حدث ويحدث حتى الآن للشعوب العربية على وجه الخصوص ، والإسلامية على وجه العموم ؛ إذ كما أن الشعوب قد ورثت ثقافة الطاعة ، فإن حكام هذه الشعوب هم كذلك من نبت هذه الثقافة ، ومن ثم كانت الطاعة هى فضيلتهم المثلى فى علاقتهم مع الأنظمة الغربأمريكية ؛ ففى كتاب ـ أمريكا وصناعة الجوع ـ يقول مؤلفو الكتاب : " ترتبط حكومة الولايات المتحدة بنظم للحكم تعمل لخدمة المصالح الاحتكارية والعسكرية والأمريكية ، بغض النظر عن الوحشية التى تقهر بها هذه النظم شعوبها ، وذلك حتى تبدو هذه النظم على شفا الانهيار "[١٠٧] .وما أكثر دول العالم التى تنهار بفعل من أفاعيل السياسات الحاكمة والمتحكمة فى رقاب الشعوب المستعمرة ، المنبطحة، المستذلة ، المستعبدة ، وأخيرا وأولا ـ المطيعة ـ لسيدها.ذلكم السيد الذى وصفه الكواكبى فى كتابه طبائع الاستبداد فى حكم البلاد والعباد ، والذى يجعلنا نؤكد بما لايدع مجالا للشك بأنه ليس حقا ما قاله مؤلف كتاب ـ تحولات الأمم والمستقبل العالمى ـ السيد يسين من :" أن النظم الشمولية والسلطوية تحارب معاركها الأخيرة للتشبث بالسلطة السياسية التقليدية ، ولذلك هى ترفض توجهات عملية التحول

الديمقراطى التى يضغط النظام العالمى من ناحية والمجتمع المدنى العالمى من ناحية أخرى لإتمامها"[١٠٨] ، يؤكد عدم مصداقية هذا القول ما ذكره الكواكبى من صفات المستبد ، تلكم الصفات التى تفند هذا القول جملة وتفصيلا ؛ كما أن ماذكره الأستاذ/السيد يسين قبل كلماته السابقة من تحليلات للمجتمع السياسى العربى الذى تراءى له أنه يعانى من مرض عضال انتشرفى جميع مؤسساته ، يتمثل فى :" ظاهرة الاستبداد السياسى ، وانعدام المشاركة فى اتخاذ القرار.. "[١٠٩] لهو أصدق قولا مما بعده ، ذلكم البعد الذى أريد له المرور إلى العقل من باب التزغيط ليكون هو الأقرب بأدلة مرسلة متهافتة قائمة على الظن ، إلا أن الظن لايغنى عن الحق شيئا ، فالحق أن المرض ـ رغم توفرالأدوية المعالجة له ـ إلا أن شركات الدواء المصنعة لترياق الاستشفاء من مرض الديكتاتورية والاستبداد هى وحدها صاحبة الحق فى التوزيع من خلال التوكيلات الخاصة ، أو من خلال البيع المباشر للشعوب دون أى ضمان للصلاحية مع التحكم فى الأسعار، عن طريق تعطيش الأسواق بسحب الديمقراطيات مع طرح المزيد من الدكتاتوريات المستبدة لثقتها التامة فى أن السلطة ـ خاصة السلطة المستبدة ـ هى كالإدمان لمن وصل إلى سدتها ، تحتاج إلى إرادة الشفاء ، كما تحتاج إلى القدرة التى تمكنها من دفع الثمن . ولا أظن أن الأمر يمكن اختزاله فى هذه السطورالقليلة ، ولكن إذا كان العالم يؤرخ له دائما من منطلق الأحداث الكبرى،فإن التأريخ الحقيقى للحقبة الاستبدادية المعاصرة ـ سياسيا واقتصاديا ـ للسيطرة على العالم كله تحت مسمى العولمة تلخصها لنا نورينا هيرتس فى كتابها ـ السيطرة الصامتة ـ بقولها : " نستطيع أن نضع تاريخا لبداية عالم السيطرة الصامتة من صعود ماغريت تاتشر ـ رئيسة وزراء بريطانيا ـ للسلطة التى جاءت بنوع خاص من الرأسمالية مع رفيقها رونالد ريغان ـ رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ـ ووضعا قوة غيرعادية فى أيدى الشركات ، وربح السوق ليس على حساب السياسة وحدها ، وإنما أيضا على حساب الديمقراطية " [١١٠].

ومن ثم يمكن القول بكل ثقة ،وبيقين لا يقاربه شك أن كل القرارات والمعاهدات الاقتصادية العالمية والمعولمة الصادرة عن الدول الغربأمريكية وكل المنظمات المعنية بالاقتصاد فى العالم ، كمنظمة التجارة العالمية وصندوق النقد والبنك الدولى، كلها تعمل وفق منظومة ثقافية سياسية استعمارية استبدادية واحدة،تستخدم فيها أقذر وسائل السيطرة على كافة مقومات الحياة فى الدول المستعبدة المطيعة ؛

خذ على سبيل المثال ماكتبه جارودى حول الاتفاقية الاقتصادية المسماة باتفاقية ـ ماسترخت ـ إذ"لايوجد فى الاتفاقية سوى٢١سطرا فقط فى٦٦صفحة لتحديد العلاقة بالعالم الثالث ، كلام حسن عن تنميته ، وعن محاربة الفقر،لكن الأطروحة الأساسية هى إدماج البلاد النامية فى الاقتصاد العالمى ، أى بالتحديد إدماجها فيما يقتلها"[١١١].

وكما جاءفى كتاب عولمة الفقر : "منذ أزمة الدين فى اوائل الثمانينات والسعى إلى تحقيق أقصى ربح توجهه سياسة الاقتصاد الكلى ـ التى فرضها صندوق النقد الدولى والبنك الدولى على البلدان النامية ـ بما يؤدى إلى تفكيك مؤسسات الدولة ، وتمزيق الحدود الاقتصادية ، وافقار الملايين من الناس "[١١٢] ، هذا بالإضافة إلى " تدمير العمالة والنشاط الاقتصادى ، ووصل عبء الدين الخارجى فى العالم النامى ـ إلى أرقام مفزعة ـ وتزعزعت بلدان بأسرها نتيجة انهيار العملات الوطنية مما أدى فى كثير من الحالات إلى نشوب الشقاق الاجتماعى والنزعات العرقية والحروب الأهلية "[١١٣] . إن الإملاءات الاقتصادية الغربأمريكية على بلدان العلم العربى فى مجالات الزراعة والتصنيع جعلت منه أكبرسوق استهلاكى فى العالم كله، فلقد شملت الثقافة الاستهلاكية العربية السلاح حتى باتت أكبرمخزن للسلاح الغربأمريكى فى العالم ، كما شملت كل من الطعام ،الكساء ،الشراب ،الفن . ولقد قرأ جارودى هذا العالم ـ عالمه الذى عاش ومات فيه ـ قرأة جيدة ، ترجمها بقلم محايد ، صدق فيه القول مع الله ومع نفسه فى أكثر مؤلفاته،مستخدما مناهج الاستقراء التاريخى والتحليل الجذرى ، والمقارنات القائمة على منهج نقدى واع بكل الأحداث وعواقبها . ومما انتهى إليه جارودى من نتائج تلكم النتيجة القائلة :"لقد حطمت البلاد الاستعمارية القديمة الاقتصاديات المحلية ، وخصوصا بالتضحية بالزراعات المتعددة لصالح زراعة المحصول الواحد والإنتاج الواحد والتى جعلت منها تابعا لاقتصاديات البلاد الاستعمارية ولصالحها فقط . مثل هذه الاقتصاديات لايمكنها أن تكفل استقلال البلاد ولا حتى الاكتفاء الذاتى الغذائى ، حتى اليد العاملة الصناعية لا ترتبط بحاجة البلاد . التبعية إذن مستمرة والقروض أصبح لايمكن تفاديها"[١١٤] .تدعم هذه النتيجة ماقاله فرانسيس مورلاييه ـ فى كتابه صناعة الجوع ـ من أنه حتى " اليوم تخدم زراعة التصدير التى تسود اقتصاديات البلدان المتخلفة ، المصالح الأجنبية بنفس الطريقة التى ظلت تخدمها بها لمئات

السنين"[١١٥] ... وما كان لنا أن نختم هذا المبحث دون مقولات ثلاث تلخص الرؤى الموضوعية لما آلت إليه الأوضاع السياسية والاقتصادية فى علمنا العربى والإسلامى على إثر التبعية الغربأمريكية . الأولى لتشودوفيسكى القائل:"إن الوضع فى كل أنحاء العالم الثالث هو وضع اليأس الاجتماعى، وعجزسكان أفقرهم فعل قوى السوق ..ودعم القمع السياسى بتواطئ النخب فى العلم الثالث"[١١٦] ؛ والمقولة الثانية أوردها جارودى فى كتابه ـ أمريكا طليعة الانحطاط ـ وفيها يقول : "لاشيء كديكتاتورية عسكرية يمكنه تحويل بلد إلى أقصى درجات الإفلاس "[١١٧] ، وفى هذا القول تلاقى بين ثقافة الغزو المسلح مع ثقافة العلم ، سواء أقصد به مطلق العلم ، أوالعلم بالنظم السياسية ، أو العلم بالمذاهب أو المدارس الاقتصادية ، فتلكم المحصلة من غزو الثقافة الغربأمريكية لعالم السياسة والاقتصاد فى علمنا العربى والإسلامى ، ماهى إلا قطرة من محيطها الهائج الذى يكاد يغرقنا ويبتلعنا إلى غير رجعة ، إن لم يكن أغرقنا بالفعل . لكن تبقى مقولة بوكانان فى كتابه ـ لماذا يزداد الأثرياء ثراء والفقراء فقرا ـ :" إن الفقر فى قاع المدينة زائد ، وكل من الفقر والجريمة يمضيان جنبا إلى جنب " [١١٨] . عند هذه الصورة الغالبة فى دول العالم الثالث أجد أن تساؤل برتراند راسل ـ فى كتابه ـ المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة ـ هو خير ختام لهذا المبحث ، إذ يقول :" إذا عرض عليك شخص ما الديموقراطية وعرض عليك آخر كيلا من القمح ففى أى درجة من درجات الجوع تفضل القمح على التصويت؟"[١١٩] ؛ وربما كانت الإجابة عند الشعوب الحرة قاطعة دون تردد بتفضيل الموت جوعا على فقدان حرياتها ، إلا أنه لدينا فى فلسفاتنا وثقافتنا حكمة أخرى تقول : أبدا لن تكون الكلمة من الرأس مالم يكن القمح من الفأس.

الاستشراق والتبشير وثقافة الغزو الدينى :

بيت من الشعر حفظته ، أردده، أدرك ما يحمل من معان وفق رؤية ثقافية مكتسبة من عقل تحيط به القيود أينما حل أو ارتحل ، بعضها اجتماعى تحكمه العادات والتقاليد ، وبعضها سياسى تحكمه مساحة الحرية فى الأنظمة الاستبدادية ، والبعض الآخر دينى تحكمه العقيدة وما يستتبعها من شريعة منظمة للعلاقات البينية

، كتلك التى بين الإنسان والإنسان ، والتى بين الإنسان ومجموع العالم الذى ولد وعاش ومات فيه .

إنه البيت الذى لاأدرى من قائله :

لكل داء دواء يستطب به ... إلا الحماقة أعيت من يداويها

إذ عندما أردد هذا البيت ، وفى نفس الوقت أقرأ ما كتب صامويل هنتنجتون فى كتابه صراع الحضارات : من أن " الثقافة الإسلامية تفسر إلى حد كبيرفشل قيام الديمقراطية فى أماكن كثيرة من العالم الإسلامى "[١٢٠]. يجعلنى هذا وذاك أتساءل : أيقصد ثقافة إسلامية مستمدة من الإسلام - عقيدة وشريعة - ومن حضارته التاريخية؟ أم يقصد بالثقافة الإسلامية تلك الثقافة الغربأمريكية التى غزت البلاد وعقول العباد بعد استعمار قديم مازال يفرض وصايته علينا ؟ أم أدرك هنتنجتون أننا لانقرأ فذهب إلى أبعد من ذلك كله جاعلا الإسلام نفسه بثقافته العقبة الكؤود فى سبيل قيام ديموقراطيات حقيقية فى بلادنا ؟

فإن كان هذا الأخير هو القصد ، وأنا على ثقة من ذلك بأنه هو ، وبأن قولته هذه ماهى إلا التمهيد لدعوة محاربة الإسلام وتنحيته عن الوجود ، إن لم يكن القصد محوه من الوجود ، حتى تخلو الساحة تماما أمام القوى والمنظمات التبشيرية ليس بالمسيحية ،كما أرادت الفاتيكان فى الوثيقة السرية المسربة من موقع - ويكيلكس - والمرسلة إلى البيت الأبيض الأمريكى ، وفيها :" إن دولة الفاتيكان إذ تعترف بفشلها وعجزها عن تحقيق الغاية العظمى التى أوكلت إليها بتنصير العالم رغم كل الدعم الذى قدمتموه نصرة للمسيح والصليب ، فإن الفاتيكان إذ تعترف بالعجز ، فإنها تعهد إليكم بما لديكم من قوة عسكرية واقتصادية ، وهيمنة ثقافية بدعم إعلامى، وبث تليفزيونى لاينقطع على مدار الساعة عن الكرة الأرضية ، بإتمام المهمة ورفع راية الصليب بسياستكم فى كل بقاع الأرض"[١٢١].وأمام هذا الاعتراف بالعجز، وأمام المطلب الفاتيكانى، فإن التبشير لن يكتفى برفع راية الصليب وحدها ، بل إن الصليب بات من الواجب عليه أن يحتضن نجمة داود تعبيرا عن الوحدة فى الوسيلة والغاية بين اليهود والنصارى ، بين اليهودية والنصرانية للهيمنة العقائدية على العالم بدين جديد ، ووحدة جديدة تسمى - الصهيوصليبية .ومن أجل مصالح العالم الصهيوصليبى الذى يهددها الإسلام - بحسب زعمهم - سخرت الإمبراطورية الأمريكية مع قارة الإتحاد الأوروبى

العجوز كل إمكاناتهم لنصرة ونشر عقيدة الصليب بكل الطرق وبكافة الوسائل ، يستغل فى سبيل بلوغ ذلك المرام الكوارث الطبيعية والإنسانية ، وما ينجم عنهما من خراب ودمار ، وقتل وتشريد ، وفقر وجوع ، أسوء مايكون الاستغلال إذ لم يتردد هؤلاء عن استثمار حالات الفقر المدقع ـ الناجمة عن سياساتهم الافتصادية ـ بين دول وشعوب العالم الإسلامى ، وخاصة فى دول الجنوب الإفريقى ، وكذا استثمار الجهل العلمى والثقافى المنتشر فى ربوع القارة السمراء ؛ وكما استثمر التبشير الفقرعن طريق تقديم المساعدات باليد اليمنى والصليب باليد اليسرى ، استثمرت كذلك حالات الثراء الفاحش لبعض طوائف وجماعات هذه الدول للتبشير فى أواسطها عن طريق ترسيخ الطبقية والعنصرية من خلال التعليم والثقافة العلمانية ،المنتشرة فى ربوع العالم الإسلامى بوسائل مختلفة ، كإنشاء المدارس الدولية ومدارس اللغات ، والجامعات الأجنبية ،وكلها أدوات فى يد المبشرين يشكلون بها عقول ووعى شباب الأمة ؛ كل ذلك يجتمع وينصهر فى بوتقة تبشيرية واحدة يحملها إلينا البث الفضائى المرئى والمسموع،الذى بلغ فى واقعنا المعاصر مبلغا ينذر بالخطر الداهم على هذه الأمة لمحتواها المنزوع عنه كل القيم الخلقية ، فضلا عن القيم الدينية ؛

التبشير وسائله وغاياته

وما على القارئ إلا أن يطالع معى أسماء عدد من هذه القنوات التلفزيونية والمحطات الإذاعية ، علنا ندرك حجم هذا الحصار الفضائى الذى يحاصرون به المسلمين من كل صوب وحدب بغية تنصيره . ولتكن البداية أولا بـ ـ القنوات التلفزيونية :

١ـ المرشد الأمين ـ٢ـ بلاوى الفتاوى ـ ٣ـ النورسات ـ٤ ـ الفادى ـ٥ـ الفضائية القبطية ـ٦ـ أغابى ـ ٧ـ مارمرقس ـ ٨ـ الحياة المسيحية ـ٩ـ لوجس ـ ١٠ـ كنيسة القديسين ـ ١١ـ الحقيقة ـ ١٢ـ الحرية ـ ١٣ـ الطريق ـ ١٤ـ معجزة ـ١٥ ـ الوعد ـ ١٦ـ الكرمة ـ ١٧ـ سات٧ ـ ١٨ـ سات ٧للأطفال ـ ١٩ـ خيمة التسبيح ـ ٢٠ ـ صوت الشباب القبطى ـ ٢١ـ البيت القبطى ـ ٢٢ ـ الشباب القبطى ـ٢٣ـ CTV ـ ٢٤ـ الكلمة ـ ٢٥ـ الشفاء ـ ٢٦ـ الراعى الصالح ـ ٢٧ـ الملكوت ـ ٢٨ـ ترانيم تى فى ـ ٢٩ـ المسيح ـ ٣٠ـ COPTIC SAT ـ٣١ـ الرجاء ـ٣٢ـ سيف الكلمة ـ٣٣ـ العذراءالذهبية ـ

٣٤- قنوات الآرمية ٢،٣،٤ -٣٥- الكتاب المقدس المسموع - ٣٦- الأصدقاء الصالحين . ثانيا - المحطات الإذاعية :

١- رديو الإسكندرية القبطى - ٢- رديو البشارة - ٣- رديو الطريق - ٤- رديو المحبة - ٥- رديو صوت المحبة - ٦ - رديو المسيح اليوم - ٧- رديو صوت الرب - ٨ - رديو القبطى - ٩- رديو كلمة الله - ١٠- رديو صوت السماء - ١١- رديو صوت الكلمة - ١٢- رديو أبانا - ١٣- رديو إذاعة الكتاب المقدس - ١٤- رديو مار مرقس - ١٥- رديو صوت المحبة - استراليا - ١٦- رديو نداء الخلاص - ١٧- رديو صوت الرجاء - ١٨- إذاعة أقباط العالم - ١٩- رديو القداسة - ٢٠ - رديو مفتاح السماء - ٢١- رديو الصوت الخيرى -٢٢- رديو إبراهيم - الشرق الأوسط -٢٣- رديو سبيرت شانيل - ٢٤- رديو المرشد الأمين .[١٢٢]

إن هذا السيل المنهمرمن الفضاء - الخارجى والداخلى - فوق رؤوس أبناء العالم الإسلامى - صوتا وصورة - لن يتوقف عن المد ، إذ به تمهد الأرض أمام القوى الاستعمارية لفرض ثقافة عقيدة الإمبراراطورية الصهيوصليبية الجديدة ، بالتواطأ كذلك مع الأنظمة الاستبدادية الإسلامية والعربية ، المعادية سرا وجهرا للدين ، تحت ستار التحديث تارة ، وعلمنة الدولة تارة أخرى ، حتى رأى وسمع جموع العالم وزيرثقافة أكبر دولة عربية إسلامية ، يزدرى الإسلام علانية ، كما يزدرى التاريخ الحضارى للشعب المصرى ، معلنا أنه شعب علمانى بالفطرة ، لم يكن فى أى حقبة من حقبه التاريخية الممتدة لأكثرمن٧٠٠٠سنة قبل الميلاد متدينا، أو يقيم للدين وزنا . إن هذا وأمثاله لا يتحركون ولايحركون ساكنا إلا وفق مخططات رامية إلى خدمة المبشرين ورسائلهم التبشيرية التى تهدف لتحقيق غايتين حددهما - صموئيل زويمر- رئيس جمعيات التبشيرفي مؤتمرالقدس للمبشرين المنعقدعام ١٩٣٥بقوله : " إن التبشيربالنسبة للحضارة الغربية مزيتان ، مزية هدم ، ومزية بناء ، أما الهدم فنعنى به انتزاع المسلم من دينه ، ولو بدفعه إلى الإلحاد ،.. وأما البناء فنعنى به تنصير المسلم إن أمكن ليقف مع الحضارة الغربية ضد قومه "[١٢٣]؛ وقد زادنا زويمر من البيت شعرا فى خطاب توجه به إلى مبعوثى التبشير فى العالم الإسلامى حيث قال لهم :"إن مهمة التبشير التي ندبتكم دول المسيحية للقيام بها في البلاد المحمدية ليست في إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً ، إن مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح

مخلوقاً لا صلة له بالله ، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها ، ولذلك تكونون بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية ، لقد هيأتم جميع العقول في الممالك الإسلامية لقبول السيرفي الطريق الذي سعيتم له ، ألا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، أخرجتم المسلم من الإسلام، ولم تدخلوه في المسيحية، وبالتالي جاء النشء الإسلامي مطابقاً لما أراده له الاستعمار، لا يهتم بعظائم الأمور، ويحب الراحة، والكسل، ويسعى للحصول على الشهوات بأي أسلوب،حتى أصبحت الشهوات هدفه في الحياة،فهوإن تعلم فللحصول على الشهوات ، وإذا جمع المال فللشهوات ، وإذا تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات إنه يجود بكل شيء للوصول إلى الشهوات، أيها المبشرون: إن مهمتكم تتم على أكمل الوجوه "[١٢٤].

هكذا صور لهم شيطانهم تحقق أحلامهم على منوال الوهم لا الحقيقة التى تقول: إن مهمتهم لم يكتب ، ولن يكتب لها ، لا التمام ولا النجاح حتى الآن ، وذلك بأدلة لاعلاقة لنا نحن بها ، بل همو الذين ساقوها إلينا ، من مثل وثائق الفاتيكان المسربة، وسيل وإسهال قنوات ومحطات الإذاعة والتلفاز الداعمة للتبشير؛ إن هذا كله وبدوره يقودنا إلى القول بأن الكذبة الشاءولية الصغرى لم تمت ، لم تنطفأ جذوتها ، بل نمت وكبرت واستعرت ، وباتت بكل أسف عقيدة كبرى يعتنقها ـ شكلا ـ من بين جموع معتنقيها الدول الملقبة بالعظمى فى واقعنا المعاصر ، تروج لها وتدفع عنها ، بل وتتخذ منها ذريعة للتدخل فى شئون دول أخرى للتنكيل بها ، وتغييرهويتها. من هنا وكما يقول ـ شيفر ـ فى كتابه ـ صراع الأصوليات ـ:"يكتسب الدين أهميته فى الحقل السياسى لأنه يقوم بالدرجة الأولى بتحويل صراعات المصالح إلى صراعات الهويات "[١٢٥] ؛ إذا الدين هنا يخدم السياسة ويدفعها دفعا نحو تحقيق غايات معتنقيه ، فإن ساءلت هؤلاء أين أنتم من تعاليم كتابكم المقدس ومن قول المسيح :" فأجاب يسوع وقال لهم أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله "[١٢٦] ، تلكم المقولة التى جعلتموها شعارا للعلمانية ، ورسختم بها قاعدة فى حكم الشعوب ، مفادها : فصل الدين عن الدولة ، وشعارالدين لله والوطن للجميع ؟ لن تجد أمامك إلا أقوال كبار المبشرين من أمثال زويمروجب ، فالأول يقول:" مادام المسلمون ينفرون من المدارس المسيحية فلا بد أن ننشيء لهم المدارس العلمانية ، ونسهل التحاقهم بها ، هذه المدارس التي تساعدنا على القضاء على الروح

الإسلامية عند الطلاب."[١٢٧] ، وأما الثانى فقد ذهب إلى أن :"الإسلام فقد سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية، وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئاً فشيئاً حتى انحصرت في طقوس محددة ، وقد تم معظم هذا التطور تدريجياً عن غير وعي وانتباه، وقد مضى هذا التطور الآن إلى مدى بعيد، ولم يعد من الممكن الرجوع فيه، لكن نجاح هذا التطور يتوقف إلى حدٍ بعيدٍ على القادة والزعماء في العالم الإسلامي، وعلى الشباب منهم خاصة. كل ذلك كان نتيجة النشاط التعليمي والثقافي العلماني."[١٢٨].

وما على القارئ إلا أن يتدبر التداعيات السريعة للأحداث فى علمنا العربى على ضوء تلك الكلمات الكاشفة عن حجم التآمر الممنهج ضد الإسلام فى ظل غياب المسلمين ؛إذ العلمانية التى نمت فى بلاد الغربأمريكى الصليبى ، والتى تلقفها ـ مع شديد الأسف والألم ـ العالم الإسلامى ، ليست فى حقيقة أمرها إلا أداة من أدوات التبشير والتدمير فى يد الساسة من حكام هذا العالم . إن هؤلاء لاهم لهم إلا بسط نفوذهم على العالم كله ، خاصة الإسلامى والعربى الذى يعد شوكة الحلقوم الحائلة بينهم وبين ابتلاع العالم .ولعل خير تعبير عن هذه الازدواجية السياسدينية أو الدينوسياسية ما صرح به رئيس الإمبراطورية الأمريكية الأسبق ـ رولاند ريجان ١٩٨٠ـ ١٩٨٨م من أن :" الإيمان والدين يلعبان معا دورا حاسما فى حياة بلدنا ... ومنذ الستينيات فقط حدث أن اتخذت أمريكا خطوات باتجاه علمنة بلدنا وإزاحة الدين عن وضعه الموقر ، ثم انتهى إلى أن هذا هو مصدر العلل التى تعانى منها أمريكا ، لأنه بدون الدين ، لاتستطيع الأخلاقيات أو الديموقراطيات البقاء طويلا... لأن الديموقراطية ماهى إلا مجرد قراءة سياسية للإنجيل .."[١٢٩].

إنها القراءة مرة أخرى ، لكنها ليست قراءة الهجاء ، " ..وإنما ـ القصد ـ أن تجيد قراءة الواقع ، وفك شفرات شراك الكلام ، وأن تتبصر العالم وتصدعاته لتغيره"[١٣٠] . فهل منا فى بلاد العرب والإسلام من يجرؤ على استلهام هذا الخطاب بإعادة صياغته متوجها من خلالها لحكام العرب والإسلام الذين ارتموا فى أحضان النظم العلمانية ليقول لهم : إن العلل التى نعانى منها الأن مرجعها إلى أننا فعلنا ما أمرنا به الأمريكان ،أى أطعنا سادتنا طاعة سعينا ، ومازلنا نسعى بكل جهد وإخلاص بترجمتها إلى طاعة عملية بتطبيق السياسات والثقافات العلمانية ، إلى الحد الذى تمسك فيه بزمام كافة مناحى الحياة ، حيث لم يبق لنا من الدين إلا اسمه

فقط ، لم يبق لنا من الدين إلا اللغة الخطابية التى أسهمت وتسهم بدورها فيما نحن فيه ، عندما حصرنا وظيفتها فى مجرد الكلام الذى أظهر أمام العالم كله سوأتنا بقصد أوبغير قصد.

لقد استفاق الأمريكان بإدراكهم حاجتهم إلى الدين ـ وإن كان بلا تعقل له ـ ليقيموا به الأخلاقيات والديموقراطيات الداعمة لأسس بقائهم فى أعلى درجات سلم الحضارة الإنسانية المعاصرة ، كما ذكر ريجان ، حتى وإن كانت هذه الاستفاقة برجماتية ـ نفعية ـ سياسية . فمتى نستفيق نحن مثلها ؟ متى نتمكن من القول : بأن الديمقراطية الحقيقية ماهى إلا مجرد قراءة سياسية للقرآن الكريم ؟ مع مراعاة الاختلاف والخلاف بين القرآن والإنجيل من جهة ، ومن جهة ثانية بين ديموقراطية الغرب ، وشورى الإسلام ؛ بين شورى قرآنية جعلت من التعدد والاختلاف أمرا إيمانيا واقعيا عقليا " ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة "[١٣١] ، وديموقراطية إنجيلية لاتعرف ولاتعترف إلا بالصليب ، إما للإنضواء تحت لوائه ، وإما لصلب الإنسانية كلها عليه . لقد دق ناقوس الخطر التبشيرى الذى يداهم عالمنا الإسلامى ـ منذ زمن بعيد ـ عدد غير قليل من الباحثين منهم المسلم ، ومنهم من اعتنق الإسلام بعدما تبين له الحق من الباطل ، بل ومنهم من ظل على معتقده ،لكنه عندما تناول الهجمات التبشيرية بالبحث من حيث الغايات انتصر لكلمة الحق التى صدقها وقع الأفعال ؛ وما على القارئ إلا أن يطالع ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ أقوال ـ ألكسى جورافسكى فى كتابه ـ الإسلام والمسيحية ـ والتى من بينها قوله :" فى البيان الختامى الخاص بموضوع التبشيرالمسيحى المنعقد فى حزيران ١٩٧٦م فى سويسرا ، أشيرإلى أنه بعد مرحلة الاستعمار خدم كثير من المبشرين ، بوعى أو بصورة غير واعية مصالح السلطات الاستعمارية ، ونتيجة لتلك التجربة أصبح المسلمون يبدون عدم الرغبة فى التعاون مع المسيحيين،الذين ينظرون إليهم كعملاء لمضطهديهم .. ويشككون فى صدق نواياهم"[١٣٢] ويستطرد ألكسى بعد ذلك قائلا : " لكن لايجوز نفى حقيقة أن كثيرا من الهيئات التبشيرية المسيحية اليوم تستخدم لأهداف مشينة " [١٣٣] .

تلك الأهداف التبشيرية المشينة التى ربطها ـ روجيه غارودى ـ فى كتابه ـ الإسلام دين المستقبل ـ بالاستشراق، وعبر عن ذلك بقوله :"بعد إخفاق الصليبين الكامل أصبحت البعثات التبشيرية المسماة بالاستشراقية بديلا عنها... ولقد ولد الاستشراق

ولكنه لم يكن عملا يهدف إلى البحث العلمى دون غاية أخرى،بل كان يهدف إلى تذليل العقبات فى وجه مشروع تبشيرى ، وقد لعب الاستشراق فى أحيان كثيرة هذا الدور المشبوه لصالح الكنيسة أو السياسة أو الاستعمار، أو لجعل الشرق يتناسب مع رغبات وحاجات السيطرة الغربية ... إن هذا الاستشراق الذى كان غالبا لخدمة المشاريع التبشيرية أو الأمبريالية أو الاستعمارية أو السياسية قد ساهم فى خلق تبرير علمى لأحكامهم المسبقة وادعاءاتهم التسلطية.وأخيرا لسيطرتهم على العالم الثالث "[١٣٤]. وينقل غارودى عن الأب ـ هغبا ـ الياسوعى الكاميرونى قوله: " ليست المسيحية ديانة غربية ، بل هى ديانة شرقية،استولى عليها الغرب الذى طبعها بطابع فلسفته وحقوقه وثقافته ، وراح يقدمها على هذا النحو لشعوب العالم الأخرى "[١٣٥] . وبهذا القول يتأكد لنا كمسلمين ، ودون أدنى شك :"أن هجوم الإرساليات التنصيرية الغربية ، التى نظمتها القوى المسيحية الأوروبية ، وغيرها فى بداية القرن التاسع عشر ، إمتداد لحلقات الحروب الصليبية حتى اليوم ، ولكن بطرق ظاهرها السلمية !! فالواقع ـ يقول ـ إنه وبعد فشل الحملات الصليبية فى مهمتها أخذت القوى المسيحية الغربية ، تعمل على تحويل العالم الإسلامى إلى المسيحية ، أو القضاء على الإسلام فيه ، باعتباره قوة أساسية، ومصدر للإنتصارات و المقاومة ، وذلك عن طريق الإرساليات التنصيرية ، والتى تقوم بمحاولات صليبية لإخراج المسلمين عن الإسلام ، وإخضاع العالم الإسلامى كله ، لتطويعه للغرب ، أو إخضاعه للثقافة الغربية والنفوذ المسيحى "[١٣٦].

فإذا ماتم لهم ذلك ، فهذا يعنى أن الولايات المتحدة الأمريكية قد أدت رسالتها، وحققت المطلب الفاتيكانى ، حيث إن لأمريكا كما قال ريجان :" رسالة دينية منحتها القوة ـ العسكرية والاقتصادية والسياسية ـ لتنفيذ مشيئة الرب على الأرض"[١٣٧] .

تلك المشيئة التى تتمثل فى رفع ـ الصليب ـ رمزعقيدتهم المقدس فوق مآذن مساجد المسلمين جميعها ـ كما هو الحال فى أكبروأعظم كاتدرائية فى أسبانيا ، والتى مازالت تفاخر حتى الآن بنقوشها وزخارفها الإسلامية عندما كانت مسجدا بناه المسلمون يوم أن كان الإسلام دينا ودنيا ، حاكما ومتحكما ـ ؛ إن رسالتهم لن تكتمل، لن تتأتى لهم السيطرة المطلقة ، إلا بإسكات الآذان ، إلا بهدم المآذن ، إلا بفرض عقيدة الثالوث ـ الآب والابن والروح القدس ـ على الإنسانية كله ،خاصة

أتباع محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فإن عجزوا عن تحقيق ذلك كله ـ وسيعجزون ـ فليكن الإلحاد بابا من أبواب السيطرة على هذه الأمة والقضاء على هويتها . ورغم انتشار ظاهرة الإلحاد فى مجتمعاتنا العربية والإسلامية ، فالحق أن هذا ليس دالا على نجاح مخططهم بقدر ماهو دال على القصور والتقصير فى مجال الخطاب الدينى الذى نال منه بشدة تدنى مستوى العملية التعليمية ، مع انتهاج منهج التزغيط فى الخطاب الدعوى ، رضوخا للقرارات السياسية السيادية التى حملت على عاتقها اختيار نوع الطعام القسرى ـ الخطاب ـ الذى يستخدم فى تزغيط جمهور المساجد ، بل وجمهور الإعلام الذى يستقى معارفه وثقافته ممن حمل أمانة الدعوة والتعريف بأمور الدين عقيدة وشريعة ، فإذا بها تأتى فى الغالب الأعم متوافقة مع صريح القرارات دون النظر إلى موافقتها أو مخالفتها لصحيح الدين ، مما أسهم فى زيادة رقعة الخلاف الذى عزز من فقدان الثقة بين الدعاة وبين عموم المسلمين ، وبخاصة فئة الشباب وعلى رأسهم شباب الجامعات بمختلف تخصصاتهم الذى أدمن ثقافة الآخر من خلال وسائل الاتصال ، والتواصل الاجتماعى ، فبات فريسة سهلة مزقت قيمها وانتماءتها ، بل ومزقت عقيدتها الدينية، وألقى بهم فى أتون الكفر والإلحاد .

الأدب والفن ثقافة حصار وتدمير :

ليس كل فن أدب ، ولكن كل أدب بالضرورة فن ، فليست العلاقة بينهما لزومية كالعلاقة بين السياسة والاقتصاد ، فالأدب أخص والفن أعم من حيث إندراج كل الفنون تحت مسماه ،إذ يشمل الفن كل مهارة فى الفنون والعلوم . وبحسب ماجاء فى دائرة المعارف البريطانية تحت مادة ART فن"إن الفن فى معناه الجوهرى هو المهارة والقدرة، وهذا التعريف يعبر عن الأصل الذى سبق أن اشتق منه فى اللاتينية وهوARTS أو فى لفظه الألمانى KUNST وهو المشتق أصلا من الفعل KUNNEN ومعناه TO BE ABLE أن تكون قادرا، أو متمكنا ، ولهذا فإن أى شخص يكتسب مهارة من نوع ما يمكن أن نطلق عليه اسمARTIST أوASTISAN آرتست، سواء أكانت قدراته أو مهاراته هذه موجهة أساسا إلى النواحى النفعية،أو النواحى الجمالية "[١٣٨]، ولا يختلف مدلول كلمة ART فن فى دائرة المعارف الفرنسية ـ لاروس ـ عما جاء فى دائرة المعارف البريطانية فكلاهما يرد الكلمة إلى أصلها اللاتينى ، وإلى دلالتها من منظور لغتهم على المويسقى والتمثيل والسينما والرسم

والنحت والفن التشكيلى عامة ، وهناك مايسمى بالفنون الحرة وهى المشتملة عل امتلاك الفنان لأدوات المقاييس الحرفية التى تمكنه من حرية لتعبير باللغة ، والقدرة على مخاطبة الآخرين بمتلاك أدوا البلاغة ، هذا إلى جانب التفكيرو والجدل بامتلاك أصول قواعد المنطق . وفى اللغة العربية يكاد يتسع المعنى اللغوى لكلمة ـ الفن ـ كما هو الحال فى اللغات الأخرى ، ففى لسان العرب : الفن : واحد الفنون ، وهى أنواع ، والفن : الحال ، والضرب من الشيء، والجمع فنون . والرجل يفنن فى الكلام . أى يشتق فى فن بعد فن ، والتفنن فعلك ، والرجل مفن : يأتى بالعجائب..ويقال افتن الرجل فى كلامه، إذ توسع وتصرف، والفنون:الأخلاط من الناس . والفنان فى شعر الأشى ، الحمار ، والفن الطرط ، وفن الإبل ، يفنها فنا، إذ طردها، و الفن العناء،والفن المطل ، والفن الغبن..وفى الوجيز:الفن:المهارة يحكمها الذوق والموهبة ، والتطبيق العملى للنظريات العلمية بالوسائل التى تحققها،وجملةالوسائل التى يستعملهاالإنسان الإنسان لإثارة المشاعروالعواطف وبخاصةعاطفة الجمال كالتصويروالموسيقى والشعر [١٣٩]. ولعل أفلاطون عندما تحدث عن الفن ، تحدث عنه من منطلق اتساع دلالة الكلمة فى اللغات إذ أعاد كل الفنون إلى العلم والمعرفة ، " فهناك بين الناس فنون كثيرة مختلفة هى ابتكارات ماهرة من إنتاج المعرفة ، إذ أن المعرفة هى التى توجه حياتنا وفقا للفن[١٤٠] ومن ثم فإن الفن الحقيقى إذا لم يتضمن الحقيقة لايكون فنا على الاطلاق [١٤١] .

والحديث فى هذا المبحث يقتصرعلى الغزوالفنى المعروف باسم التشخيص أوالتمثيل ، أو المحاكاة ، أو التقليد ، من باب عموم آثار الثقافة التلفزيونية والسينمائية ، تلكم الثقافة التى غزت العلم كله، على اتساع رقعته واختلاف لغاته، فالشاشة الصغيرة أوالشاشة الكبيرة قد جمعتا فى هذا الحيز الضيق بين كل ألوان الثقافات السابقة ، ثقافة الحروب، ثقافة العلوم ، ثقافة السياسة والاقتصاد، الثقافة الاجتماعية والدينية والرياضية ؛ كلها عند معظم مثقفى اليوم أختزلت فى ثقافة فن التمثيل أو التشخيص ، ذلك النوع من الفن وحده الذى استطاع من أجل اختراق العقول والقلوب أن يخترق صلابة الجدران بمادته المصورة التى اصطلح على تسمياتها بالأفلام والمسلسلات، والتى تستمد مضمونها من أدب القصة أو الرواية أو القصيدة الشعرية . وليس الفن التمثيلى فنا حديث العهد ، بل يعد من أقدم الفنون حيث نجده فى معظم الحضارات القديمة ، كالمصرية الفرعونية والصينية والهندية

واليونانية ، إلا أن الأخيرة رغم تأثرها واقتباسها من الحضارات السابقة ، ظلت حتى زمن الحداثة والمعاصرة محتكرة لثقافة هذا الفن لاعتبارات عدة لعل أهمها الانتماء إلى العالم الغربى من جهة ، ومن جهة أخرى معظم المصطلحات المستخدمة فى هذا الفن هى هى عين المصطلاحات التى استخدمها قدماء اليونان ، والجديد إما مشتق منها وإما مستوح من ثقافتها . وقد أشار أفلاطون إلى فن التمثيل وما يحدثه من أثر نفسى وعقلى عند كل من الممثل أو المشاهد ، ففى الجمهورية يقول أفلاطون لتلميذه :" أولا تدرى أن التمثيل يتمكن من النفس بتأثير الإشارات ، ونغمة الأصوات، وطرائق الفكر ، إذا مارسوه منذ الحداثة فيصير عادة فيهم كطبيعة ثابتة "[١٤٢] .

وقد فرق أفلاطون بين نوعين من الفن التمثيلى ، أحدهما يهدف إلى البناء والآخر يهدف إلى الهدم ، كما فرق بين ممثل تحكم فنه الأخلاق النبيلة ، وآخر تدفعه الرذائل دفعا إلى التدنى والانحطاط فيما يقدمه من أعمال تمثيلية. فعلى حد قوله :" إذا بلغ الرجل الحسن الخلق فى قصصه كلام الصالحين أو أفعالهم تلاها عن رغبة، دون خجل لأنه يؤثر أن يمثل الرجل الصالح إذا أقترن ذلك التمثيل بالرصانة والتعقل . ولكنه حين يمثل رجلا اختل اتزانه لمرض أو عشق أوسكر مثله بأقل رغبة . ومتى بلغ فى تمثيله مالا يليق بكرامته ، فإنه يخجل من تمثيله، عوض الظهور بمظهرمن هم دونه ، إلا إذا كان التمثيل قصير المدى،لأنه متصف الصلاح، ولأنه لم يألف مثل هذا النوع من التمثيل ، أو لأنه لدى إمعان الفكر ينفر من التبذل والتدنى ،على منوال السفلة ، إلا إذا كان على سبيل التسلية..ومن جهة أخرى إن الإنسان الذى يختلف سجية ـ عما ذكرنا ـ لا يجنح الى حذف شيء من قصصه كلما زاد خسة ولا يترفع عن شيء مهما يسفل فيمثل كل شيء بمزيد من الجد حتى على مرأى الكثيرين من الناس "[١٤٣] ويبدو أن الصورة التى رسمها أفلاطون فى فلسفته للتمثيل والممثل كانت إرهاصا لما سيكون عليه الحال عندما سيطرة الإمبراطورية الرومانية فى العصر الوسيط الذى اتسعت فيه رقعة العمل التمثيلى حتى بات أحد أهم مصادر الثقافة الإنسانية الموجهة للفكر العقلى والسلوك الخلقى ، بناءا أو هدما ، سلبا أوإيجابا . وبما أن هذا العصر كان عصر سيادة الكنيسة ، فإن الحكم على هذا الفن يرتكزفى جوهره على الدين كرافد أساسى من روافد تنظيم الحياة الإنسانية بكل أبعادها الدينية والعلمية والاجتماعية والخلقية

...إلخ . ولست مؤرخا لهذا الجانب من جوانب الثقافة إنما من باب الاستشهاد بعظيم الأثر الناتج عن هذه الأعمال،وهو مايمكن التعرف عليه من خلال بعض أقوال رجال الدين النصرانى المتحدثين باسم الكنيسة؛ومنهم القس ترتوليان١٥٥-٢٣٠م،أحد آباء الكنيسة القائل :" إن الشياطين أنفسهم هم الذين أوحوا إلى البشر بالميل إلى بالتمثيل. فكل هذه العقول التى تعمل جاهدة على أن تقدم لكم شيئا من المتعة تستمد موضوعاتها من الأفعال غير الشريفة ، حيت تمثل علانية كل الرزائل التى نخفيها بأكبرقدر من الحرص. ومن غير المعقول أن نحترم فنا نحتقر الذين يمارسونه لدرجة وصفهم بالعار"[١٤٤] . ويلتقط القديس كليمون السكندرى١٦٠- ٢٢٠م ، طرف الحديث منتقدا فن التمثيل المسرحى من باب :" أن المسارح وهى ملتقى للفساد لا ترى فيها إلا الأشياء التى تخدش الحياء، ويختلط فيها الرجال مع النساء ليتأمل بعضهم الآخر ، تحرك كل هذه النظرات رغبات النفس السيئة ،لأن العيون التى اعتادت النظر إلى الآخرين تشعل نار الحب بالحرية التى تعطى لها ، وعندما يخرج هؤلا ء القوم من اجتماعاتهم الوثنية تلك يحلو لهم أن يرددوا
الأغانى الدنيوية التى استمعوا إليها والتى تزخر بأحاسيس الحب المدنس "[١٤٥] .
ليس هذا فحسب ، بل إن الأثر الهدام الذى يخلفه هذا الفن فى منظومة الأخلاق لهو أكبر بكثير عند القديس سيبريان ٢١٠- ٢٥٨ م :الذى عبر عن رؤيته بقوله : إننا " نتعلم الزنا من رؤية تمثيله ، والشر المسموح به علانية له من السحر ما يحدث معه بعض النسوة اللواتى جئن إلى المسرح وهن عفيفات يخرجن وهن فاجرات،ألقوا نظرة على المسارح وسترون فيها أشياء تدعو إلى الشفقة والخجل فى آن واحد . تفخر المأساة بتمثيل الجرائم الماضية ، وتجد هول قتل الأب أو الأم ، أو سفاح ذوى القربى ، خوفا من أن يمحو الزمن ذكرى هذه الأعمال المجيدة . وأما هزل الممثلين المخجل فيمثل الفضائح التى ترتكب فى المنازل ، أو يعلم الفضائح التى يمكن أن ترتكب فيها ، إذ نتعلم الزنا عند رؤية شيء منه ، ولأن سلطة الحاكم الذى يحبذ هذا الفساد ترضى ميولنا السيئة ، .. فكم بمقدور الأوضاع المخلة للمهرجين أن تفسد الأخلاق وتحرك الرذائل .. أية انطباعات لايستطيع أن يولدها إنسان من هذا النوع! إنه من يهز الحواس ، ويرضى الأهواء ، ويبعد كل خجل عن أعف الناس ، وعن الفساد الذى يسود العالم "[١٤٦]

وتلكم هى بعض الأحكام الكنسية ـ المتحفظة ـ على فن التمثيل ، إلا أن بعض الباحثين يرى أن هذه النظرة الناقدة للفن من رجال الكنيسة ، إنما نشأت كنتيجة للسمات التى اتسم بها الفن السائد فى بدايات العصور الوسطى المتأثر بالمقولة التاريخية الفلسفية بأن الفلسفة للفلسفة ، ومن ثم كان الفن عندهم للفن ؛ هكذا يقررأرنولد هاوزر فى كتابه ـ الفن والمجتمع عبر التاريخ ـ على الرغم من أن تحقيق هذه المقولة ـ عقلا ـ سواء أكانت فى الفلسفة أو الفن ـ يثبت أنها لا تمت للواقع بصلة ، فلم تكن أبدا الفلسفة غاية فى ذاتها عند اليونان كما ذهب البعض تأويلا ، بل كانت وسيلة العقل لبلوغ الحكمة والمعرفة ، وليس هذا بموضع تحقق فيه مثل هذه القضايا ، إلا أن الفن أيضا لم يكن أبدا للفن ، ولن يكون كذلك ، فالفن كان ومازال وسيكون وسيلة لغايات كثيرة ، منها ـ الآن ـ على سبيل المثال لا الحصر النيل من عقيدة لأجل عقيدة أخرى ، إذ كما يقول هاوزر: " لأن وجود فن لذاته ، بغض النظر عن العقيدة ، كان فى نظر عقلية العصور الوسطى أمرا لايمكن أن يسمح به الدين ، مثلما يستحيل السماح بقيام علم مستقل . ولقد كان الفن ، من حيث هو أداة للتعليم الكنسى ، أعظم قيمة من العلم ، وذلك على الأقل فى الحالات التى كان الهدف فيها هو انتشار الدعوة ، على أوسع نطاق ممكن " [١٤٧] .

و النص وإن لم يستكمل إلا أنه من الأهمية بمكان أن نقف أمام هذا الجزء لنستخلص منه أمرين يمثلان ركيزة من ركائزالثقافة الفنية ، تبنتهما الكنيسة من باب الفلسفة الميكافيللية القائمة على مبدأ ـ الغاية تبرر الوسيلة ـ . الأمرالأول : الفن ـ من وجهة نظرهم ـ أهم وأعظم قيمة من العلم ؛ والأمرالثانى : الفن هوأهم الوسائل المستخدمة فى التبشيرونشرالديانة المسيحية.

ويدعم هذا الاستنتاج أمرين أيضا ، الأمر الأول نتعرف عليه من استكمال القراءة فى النص السابق ، إذ جاء فيه أيضا قولهم :" إن الصورة هى ما يثقف به الجهلاء،... وإن الفن لايعود ضروريا لو كان فى استطاعة كل شخص أن يقرأ ويتتبع سلسلة مجردة من الاستدلال ، فالفن ينظر إليه أصلا على أنه ترضية للجماهير الجاهلة التى يسهل تأثرها بانطباعات الحس . ولم يكن يسمح له أبدا بأن يكون مجرد متعة للعين ، .. فالطابع الإرشادى للفن هو أبرز سمات الفن المسيحى ، فى مقابل الفن عند القدماء . صحيح أن اليونان والرومان قد دأبوا على استخدامه أداة للدعاية ، ولكنه لم يكن فى نظرهم أبدا مجرد وسيلة لنقل التعاليم "[١٤٨]

والمتأمل فى الجزء الثانى من النص يجد أننا ومن خلاله نقف أمام مرآة تعكس صورة الماضى فى الحاضر ؛ فلئن كان الفن كما قالوا : أكثر تأثيرا فى الجهلاء ، خاصة أولئك الذين لايجيدون القراءة ، فنحن لانجيد القراءة ؛ ولئن كان الفن كما قالوا أيضا : يستثمر جهل الجهلاء ، من خلال الأخذ بناصيتهم ،توجيها وإرشادا ، فنحن على الدرب سائرون . إنهم يستخدمون الفن كأحد أهم دعائم التبشير،فإن لم يكن كذلك، فليكن إذراء الدين ـ شريعة أولا ـ ثم تأتى العقيدة لاحقا، تمهيدا لإسقاط الدين بالكلية من عالم الثقافة،كخطوة جادة نحو تأصيل ثقافة الإحاد بالفن.

أمركة وسلعنة الثقافة الفنية :

عندما تقرأ ـ إن كنت ممن يجيدون القراءة كهجاء الحروف ، أو تجيد قراءة مابين السطور ـ أخبار مدينة الإنتاج الإعلامى المصرية ، فأنت لامحالة كمن وقع بين حجرى الرحى ، فالإنتاج يعنى المنتج ، يعنى الصناعة ، يعنى التجارة ، يعنى الأسواق ، يعنى الاستهلاك ، يعنى الأرباح والخسائر، يعنى مطالعة أجور الفنانين ، ملايين الملايين فى صناعة العمل الفنى الواحد ، يعنى التساؤل كيف يكون كل ذلك فى أمة لاتقرأ؟كيف يكون ذلك فى أمة دينها وديدانها الفقرثم الفقر؟

ولئن كانت الإجابة قد ورد بعضها ضمنا فى أقوال أرباب الكنيسة سالفة الذكر ، إلا أن تمام الإجابة تحمله إلينا السطور التالية ، بداية من قولنا مع مايكل دينينغ فى كتابه ـ الثقافة فى عصر العوالم الثلاثة ـ: " للمرأ كل العذر إذا تساءل مندهشا ، كيف يمكن أن تكون الثقافة ممارسة سياسية فى عالم تسيطر على السوق الكونية للثقافة فيه حفنة من الشركات المهيمنة دوليا ،..وحيث يبدو أن صناعة الترفيه تستولى ، فورا على أساليب المقاومة فى الثقافات الفرعية ، وتتولى تسويقها،وحيث غالبا ما تتخذ ، حتى السياسات الثقافية شكل تكريس المشاهير "[١٤٩] من مثل ـ الأسطورة ـ ذلك اللقب الذى خلعه الإعلام الفنى على ممثل شاب محور أفلامه ومسلسلاته تدورفى إطار الوسط الذى يرسخ ثقافة سطوة المال ، يرسخ ثقافة الوصولية ، ثقافة الانتهازية ، ثقافة الغاية تبرر الوسيلة ، التى فرضت على مجتمع بأسره ، خاصة عالم الشباب الذى يقف على أبواب التعليم الجامعى أن الطرق المثلى للحياة فى عالمنا المعاصر ، ليست بالعلم ، لأن المتحكم اليوم فى المنظومة المتهالكة عالم البلطجة ،عالم المخدرات ، عالم الجنس ،عالم السوقية فى القول السوقية فى الفعل ، لقد أصبح الأسطورة علامة ، أو مركة مسجلة لثقافة شباب العصر المنقسم على نفسه ، أهو مع

نجم الفن ، أم مع نجم كرة القدم الذى بلغ راتبه فى ساعة أكثر مما يتقاضاه حامل درجة الدكتواره طوال عمره ـ حتى سن التقاعد . إنها إذن السياسة فى عالم الفن ، سياسة الغزو أوالسيطرة ، سمها ماشئت ، فليس للمسميات قيمة إلا عند من يملك القدرة على فهم جوهرالتسمية من ناحية الغاية والقصد، وهنا يأتى الاقتصاد كحاكم ومتحكم فى صورة الممول لتلك الصناعة المسماة بفن التمثيل، يأتى بشروط الراعى الرسمى المحتكرلهذه الصناعة فى العالم كله. إنها هليوود المدينة العالمية الأمريكية للإنتاج الفنى ، إنها واحدة من آلهة العصر الثلاثة التى تحكم العالم ." فاليوم وفى عالم البشر يحكمنا ، ويتحكم فى ثقافتنا الثالوث الإلهى المقدس ، الأول : إله القوة والحرب والدمار والخراب والقتل ، وهو الإله المسمى بـ ـ البنتاجون ـ وزارة الدفاع الأمريكية ؛ والثانى : إله المال والاقتصاد والتجارة ، إله الزراعة والصناعة ، إله الإذلال والاستعباد ، وهو المسمى بـ ـ بيت التجارة العالمى ـ الذى فجره غضب فقراء وجوعى العالم ؛ والإله الثالث : هو إله التاريخ والآداب ، إله الفنون والثقافة ، إله الجمال والمتعة بكل فنون الحب والعشق ، وهو الإله المسمى بـ ـ هليوود ـ مدينة إنتاج كل فنون السيطرة الأمريكية "[١٥٠]

السيطرة الفنية على مجموع قوى النفس التى ذكرها أفلاطون ـ سواء فى الجمهورية أو فيدون ـ إنها القوى العاقلة والشهوية والغضبية . إنها هليوود مصنع النجوم البشرية ، التى تحمل على عاتقها فرمتة العقل البشرى استعدادا لبرمجته وفق المواصفات الأمريكية ، ففيها يعاد قراءة تاريخ أمم وشعوب الحضارت القديمة برؤية أمريكية هليوودية ، وفيها أيضا يشكل ويسطرتاريخ المستقبل ـ إن كان هناك مستقبل ـ لمن قدر له عبور بوابة الحاضر إلى عالم المستقبل . إنها الحرب الثقافية الرابعة التى ذكرها سايمون ديورنغ فى كتابه ـ الدراسات الثقافية ـ فبعد حروب الثقافة الثلاثة الأخلاق والتجارة والهجرة ،يمكننا على حد قوله " إضافة حربا ثقافية رابعة يجرى خوضها يوميا فى كل ماكن خارج الولايات المتحدة المريكية ، وهى بين الأمركة وأعدائها "[١٥١] .

وإذ تتم أمركة العالم من خلال وسائل الإعلام المختلفة ، يظل التلفاز بمواده التى يرسلها ـ صوتا وصورة ـ عبر الأثير ، سواء أكانت أفلاما ، أو مسلسلات ، أوبرامج سياسة وترفيهية ، تستحوذ على أعلى نسبة مشاهدة فى العالم ؛ مما يجعل السؤال المطروح من الأهمية بمكان للوقوف على أسباب اجتياح ثقافة الأمركة للعالم كله ،

فلماذا قبل كل منا بمجرد أن أصبح قادرا على قراءة الترجمة المطبوعة على الشاشة أن يلهث وراء المنتج الفنى الأمريكى ؟

إن الإجابة تكمن فى حرفية التحكم فى ثقافة الصورة ، وتوظيف تأثيرها وتفاعلها العميق فى نفوس من لايجيد القراءة . ولعل ماجاء فى كتاب ستانلى جيه ـ أنواع الفيلم الأمريكى ـ ليعبر عن واقع هذا التفاعل ، فـ " لقد قال البسطاء من الناس قبل أى أحد آخر إن العالم قرية صغيرة ، ولا يحتمل بالتالى إلا مصنعا واحدا للأفلام . إنهم وجدوا فيها المتعة الشاملة ، والإشباع البصرى ، والاستحواذ الوجدانى والعقلى، إنها روح الأسطورة التى تتخطى حدود الخيال ، أو على أقل تقدير : تقف على أعتابه . إنها الإبهار الانفعالى العنيف الذى لا يتأتى إلا من البطولة الخارقة،والأقدارالداهمة، ونيران التطهر، والتضحيات المذهلة،والسعى التراجيدى، والتمسك شبه الأحمق بالمثل العليا ، والتحدى شبه المجنون لتلك الأقدار الغاشمة التى لاترحم "[١٥٢] ، هنا تتشكل الثقافة ، تصنع وفق الطلب ، فـ " لقد تجاوز الأمر ثقافة حدودك ، تلك العادات والمشغولات العتيقة التى يجمعها خبراء الفولكلور ، وبالأحرى فقد أصبحت هذه الثقافة الجماهيرية ، تحت أقنعتها المتباينة المشهد ، الرمز التجارى الكلى الحضور ، التيار الذى لاينضب للأنشطة الترويحية الجماهيرية ، النماذج الاستهلاكية المنتظمة للعالم من المتسوقين ، ملايين المراهقين المهاجرين ، إلى المدارس العليا والجامعات "[١٥٣]

إنهم يعزفون على أوتار الجوع الإنسانى المصنوعة من الأمعاء الخاوية، إنهم ينسجون الوهم على خيوط من سرابيلهم البالية ، إنهم يسوقون عوالم الخيالات بدلا من عوالم الواقعية الاستبدادية القاسية المفزعة ، إنهم من خلال السيطرة على عالم التلفاز ، انتزعوا من الشعوب المستعبدة حقوقهم فى ثقافة نابعة من قيمهم الدينية ، " إن جملة هذه الهموم ناتجة بشكل أساسى ـ كما يقول ديورنغ ـ عن هيمنة الولايات المتحدة على البث التلفازى وعلى صادرات الأفلام حول العالم،إذإن٧٥%من الصادرات التلفازية عالميا تأتى من الولايات المتحدة الأمريكية"[١٥٤] والنتيجة الحتمية لهذا الاحتكار ـ كما أكد ديورنغ ـ : " أن التلفاز قلص قدرة مشاهديه على التأمل فى المجتمع والثقافة ونقدهما . لقد قام التلفاز بذلك عبر تقديمه أشكال إلهاء قوية حولت الثقافة الجماهيرية الحديثة إلى وسيلة سيطرة نفسية لايحلم بها ، إذ يذيب التلفاز شخصية الناس ، ويقدم عالم صورة ممعير جدا ، ويعززالسيطرة الزائفة

للحياة الخاصة على المجال العام ؛ كما يخلق أوهاما واقتناعات زائفة بغية السماح للرسمالية بالمحافظة على نفسها . إن التلفاز قوة إغراء عظيمة لدرجة يصبح معها الفرق بين عالم الحلم والواقع مشوشا "[١٥٥].

وأبدا لايمكن حصر هذا الواقع الثقافى الذى أحاط بنا من كل جانب كإحاطة السوار بالمعصم فى هذه الورقات المعدودات ، لكن هى ومضة عقل وسط أنوار مبهرة زائفة من ثقافة تذهب برؤية البصيرة بعد تلاعبها برؤية البصر ، فما أكثر الخدع البصرية المستخدمة فى فن الإبهار ، تلك الخدع التى أعجزت خيال المتلقى عن تخيلها، ولكم تساءل الناقد الفنى الأمريكى جميس آجر : " كم من الناس يستمتعون بالأفلام حق المتعة ويعرفون الفرق بين العمل الجيد والعمل الردئ، ويهتمون جدا بهذا الفرق ؟"[١٥٦] .

وكم منهم يفرق بين الحقيقة والوهم ، بين الواقع والخيال ؟ أم إن الأمر كما صوره بيتر نيكوللز عندما قال فى كتابه ـ السينما الخيالية ـ : " قد يثور جدل كبير حول كيفية تحديد فيلم ما بأنه فيلم خيالى ، حيث تظل هذه الأحكام ذاتية لدرجة ما دائما . فالخيالى بالنسبة لشخص معين قد يكون واقعيا فى نظر شخص آخر "[١٥٧].

وهى كلمة حق أريد بها باطلا، لعدد من الاعتبارات ، لعل أهمها ، استبعاده التام لعالم الخيال

المصنوع عمدا ، والذى به يتمكن صناعه من فرض سيطرتهم على الآخرين ؛ وهو ما أكده سايمون ديورنغ بقوله : " يتم من خلال الخيال وضمنه ضبط المواطنين الحديثين والسيطرة عليهم من قبل الدولة ، والأسواق ، وأصحاب النفوذ الأقوياء الآخرين ، .."[١٥٨] .

والخلاصة تكمن فى أن مسمى الفن الذى يقدم لنا تحت اسم الترفيه والمتعة هو الذى يعيد تشكيل عقائدنا وثقفاتنا،ووفقا لقول إريك بارنو:"إن مفهوم الترفيه فى تصورى هو مفهوم شديد الخطورة إذ تتمثل الفكرة الأساسية للترفيه فى أنه لا يتصل من بعيد،أوقريب بالقضايا الجادة للعالم ، وإنما هو مجرد شغل أو ملأ ساعة من الفراغ ، أيدولوجية مضمرة بالفعل فى كل أنواع القصص الخيالية،فعنصر الخيال يفوق فى الأهمية العنصرالواقعى فى تشكيل آراء الناس"[١٥٩]

ولعل من الأمور الجديرة بالذكر فى هذا السياق هى الرؤية التى عبرعنها كولنجوود لطوفان الثقافة الجنسية التى يستخدمها أرباب فنون الفن التمثيلى إذ يقول:"من

الأسس التى يكاد يسلم بها جميع المنتجين عدم قدرة أى فيلم على مصادفة النجاح إلا إذا عنى بالحب ـ الجنس ـ ولا ننسى ماهوأهم من ذلك،أى المجلات والجرائد،حيث تظهرتصميمات الأغلفة وأخباروالقصص والإعلانات مشبعة بمادة من النوع نفسه مثل القصص الغرامية وصورالحسان المتنهدات والمجردات ، أو صور رجال ذوى جاذبية فى حالة القارئات ، وهذه الإباحية تظهر تبعا لحساب الإثارة ، كما أنه من اليسير التئامها مع الموضوعات الوهمية . ومن هنا أصبح نوع الفن الترفيهى الذى يسمى فى أفحش صوره بالفن الإباحى ، شائعا ومحبوبا إلى أبعد حد "[١٦٠].

وهنا أترك التعقيب على هذ القول لأرنولد هاوزرالذى يقول "" إن التفسير الاجتماعى للفن ينجح إلى أبعد حد فى حالة المجتمعات البدائية البسيطة ، ولكن كلما تعقدت المجتمعات البشرية قل الارتباط المباشر بين الفن والظروف الاجتماعية المحيطة به"[١٦١]؛وهوالتعقيب الذى يقودنا إلى القول الصريح بأن مايقدم لنا تحت مسمى الفن فى العالمين العربى والإسلامى لاعلاقه له

بنا اجماعيا ولااقتصاديا ، ولا عقائديا ، ومن ثم هو غزو استعمارى ثقافى فرض فرضاعلى الأمم والشعوب المستضعفة بقوة السياسة ودعم الاقتصاد الرأسمالى الوحشى . وهو وإن كان يخضع للتفسير الاجتماعى الأن ، ونصيب من خلاله كبد الحقيقة ، فما ذلك إلا تأكيدا لقول هاوزرف ، بأن التفسير الاجتماعى للفن ينجح فى حالة البداءة الأولى ، وأظن ، بل أكاد أجزم بأنهم قد أعادوا البشرية بفنونهم إلى ماهو دون البداءة والهمجية .

وما كان لى أن أختم هذا المطلب دون التأكيد مرة بعد مرة على أمرين ، الأمرالأول أكدته مارى وين فى كتابها ـ الأطفال والإدمان التلفزيونى ـ عندما قالت إن أجهزة التلفزيون فى الدول العربية كلها تابعة للنظم السياسية ، وسلاح من أسلحتها ، ووسيلة من وسائل تغييب وعى الجماهير وصرفه إلى حيث تريد :"[١٦٢] .

وأما الأمر الثانى : فقد أكده روحيه جارودى فى كتابه ـ أمريكا طليعة الانحطاط ـ بقوله : " إن شعبا بلا ماضى لايمكن له أن يبدع فن بلا جذر"[١٦٣] .

فمن اتخذ من هذا الفن معينا ينهل منه ثقافته، ينهل منه قيمه وأخلاقه معتقده ، فهو المقلد المنحط الذى ذكره أفلاطون فى الجمهورية بأنه :"الجاهل الذى لايعرف علما ولايمتلك رأيا صحيحا فيما يقلده بإعتبار جماله أوقبحه ، فهو يسير فى تقليده بالرغم من جهله ما يقوم به جمال الشيءأو قبحه جهلا تاما ولكن بحسب الظاهر يقلد

أوصاف الجمال المبهمة الرائجة عند جمهورالأميين. إن المقد لايعرف شيئا مهما عما يقلده ، فالتقليد عنده مجرد لهو وتسلية لا عملا جديا"(١٦٤)

ورحم الله الشيخ الإمام محمد عبده عندما وصف المقلد بقوله " إن كان المسلمون قد أخذوا الجمود فى التقليد والنفور من العلم والاعتقاد بالعداوة بين الدنيا والآخرة ، وبين العقل والدين ، وما أشبه ذلك بما هم فيه ، وورثوه عن الأمم السابقة عليهم ، وخصوصا أقربهم أقرب الملل إليهم ، فأقول : إن المقلد يكون دائما أحط حالاوأخس منزلة من المقلد ، فالمقلد إنما ينظر من عمل رالمقلد إلى ظاهره ولا يدرى سره ولا ما بنى علي"(١٦٥) .

وأخيرا : إنهم دائما يقولون بعد القيل والقال " الثقافة عملية احتكارية متكاملة ، فالثقافة الغربأمريكية فرض كفاية ، تحتكر ثقافة الحكام والحكومات ، تحملهم أمانة التبليغ ، من منطلق رسالة الحكام والحكومات ، التى تحتكر بدورها ثقافة الشعوب وحينها تصبح ثقافتهم فرض عين على العبيد ، كل ذلك عبر حوارات إعلامية دعائية ، نقدية وهمية ، بين مؤيد ومعارض لثقافات الوعى الزائف،كلام فى كلام،ثم خلاصة الكلام كلام يقال لك،يقال لنا: ليس فى الإمكان أبعدع مما كان ، وما هو كائن، وما سيكون ، فيما يقدم من علوم ، من ثقافة وفنون"(١٦٦) .

وصدق قول القائل : أعطنى إعلاما بلا ضمير ، أعطك شعبا بلا وعى . وقل فى هذا العصر:

أعطنى فنا بلا أخلاق ، أعطك أمة بلا دين ؛ أعطنى شعبا بلا علم ، أعطك جيوشا من العبيد .

خاتمة البحث :

هل للفروسية من معنى فى زمن انقرضت فيه الخيول العربية الأصيلة ؟

وهل للفرس والفارس من قيمة إن كان يبحرفوق ظهرسفينة تتقاذفها أمواج عالية كاجبال ؟

وهل كل من امتطى ظهر حمارأصبح خيالا ، أو فارسا ، يشار إليه بالبنان ؟

وهل كل من قرأ كتابا ، أو كتب مقالا ، أو ألقى خطبة ، أو جلس على مائدة يتحاورفى حضور

الكاميرات التلفزيونية ، بات لأجل كل هذا علما من أعلام المثقفين ؟

وهل أنا حقا أملك إجابة كل هذه التساؤلات ؟

الحق أن ما أملكه قد قلت فى سياق البحث بعض بعضه ، ولست أدرى من صاحب مقولة : ليس كل مايعرف يقال ، إلا أنه رغم عدم قناعتى الشخصية بتلك المقولة ، انطلاقا من أن ما أعرفه لاقيمة له مالم أحدث به غيرى ـ خاصة فى مجال العلم ـ ، فأنا إذ أمسك عن كثير من القول فما ذلك منى تعمد النقص أو التقصير ، وإنما من باب ما جعله الإمام أبو حامد الغزالى علما على مؤلف من مؤلفاته وهو : المضنون به على غير أهله . ولست مدعيا معرفة من أهله ومن ليس بأهله ،إلا أنى على يقين بأن لكل مقام مقال، ولكل مقال رجال. وهذا زمن يضن فيه كثير من الرجال بالكثير والكثير من الأقوال .

والقاعدة تقول : مالا يدرك جله ، لايترك كله . من هذا المنطلق أقول فى ختام هذا البحث :

أولا : تتكون لغتنا العربية ـ كما ذكرنا فى مقدمة البحث ـ من الاسم والفعل والحرف، وهنا وفى الختام أنا معنى بعالم الأفعال ، ذلك العالم الذى تحصره اللغة فى ثلاثة أنواع ، فعل ماضى، وفعل مضارع ، وفعل أمر؛ ومن كل أنواع أفعال لغتنا العربية،نحتاج الآن إلى ثلاثة أفعال، نعم يحتاج العالم العربى والإسلامى من مجموع أفعال اللغة إلى تفعيل ثلاثة أفعال ليس الآن ، وإنما الأمس قبل اليوم ، واليوم قبل الغد ، إن كنا حقا ننشد ، خلاصا ، ننشد تغييرا لهذا الواقع الثقافى المطبق على الأمة، حضارها ومستقبلها، ممثل فى شبابها المحترق والممزق بين ماهو كائن، وما كان يجب أن يكون ؛ بين مايريد ، وما يراد له . تلكم الأفعال الثلاثة هى:اقرأ، تعلم ، اعمل.

ثانيا : عند الأمة الإنجليزية حكمة تقول : صوت الأفعال أقوى من صوت الكلمات ، فمتى تصبح القراءة عندنا فعلا وعملا ،غير مجرد الكلام ، متى تصبح المطابقة اللفظية مطابقة للواقع وفى الواقع ، وليس مجرد مطابقة إيمانية . " يأيها الذين أمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتا عن الله أن تقولوا ما لا تفعلون "[١٦٧]

ثالثا : إن إخراج الأفعال الثلاثة ـ اقراء ، تعلم ، اعمل ـ من سجن الإعراب النظرى وفق قواعد النحو، إلى عالم العمل الفعلى المادى لا وزن ، ولا قيمة له ، مالم يطلق سراح العقل من محبسه ،مالم يعد من منفاه الإجبارى الذى اعتقل فيه منذ قرون خمسة- على أقل تقدير- إلى عالم الحرية بكل معانيها، ليقرأ حتى يفهم ، ويفهم حتى يتعلم، ويتعلم حتى يعمل وفق أسس العلم فى كافة ميادين العلوم والفنون، دون شرط أوقيد على إبداع فيه من التجديد والابتكارما يثرى حاضر الأمة ومستقبلها ، ماديا ومعنويا، سياسيا واقتصاديا، أدبيا وفنيا، اجتماعيا ورياضيا. مرسخا ومحصنا دعائم الإيمان بالعقيدة فى القلوب ضد هجمات التبشيرونزعات الإلحاد .

رابعا:واهم أولئك الذين تغريهم أضواء الكاميرات،فيلتفواحولها ليخطفوابكلامهم المسموم وعى الناس باعتبارهم خلاصة المثقفين فى الأوطان، فإذ بها تخطف أبصارهم ، فـ :" مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضات ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون "[١٦٨]، أقول هذا لكل من يسعى بكلام جدلى فضفاض أن يقيم فى عقول الشعوب والأمم حاجزا وهميا اصطناعيا بين الثقافة السياسية والثقافة الاقتصادية ، فقد أثبتنا أنهما بالبراهين وجهين لعملة واحدة ،يؤكد باولو فريرى على هذا الرباط بقوله: " إن التعليم والسياسة نسيج واحد فى لحمته وسداته ، فالنشاط التعليمى عمل سياسيى بالدرجة الأولى ، كما يؤكد على أن هناك وجها سياسيا للتعليم كما أن هناك وجها تعليميا للسياسة : "[١٦٩]. وتقويض هذا الزعم يقوض مكمن الخطورة فيه ، إذ لوقدر لهم النجاح فى هذا الفصل ، لانطلقوا منه إلى الفصل الثانى المراد بين الدين والسياسة باسم العلمانية ، وهو الوهم الذى أثبتنا بالبراهين بطلانه فى أعتى بلاد العلمنة ، وكيف أنهم يعودون للإنجيل برؤية سياسية تبشيرية ، كما يعود اليهود باسم ـ ياهو- إلى التوارة برؤية سياسية عنصرية تدميرية، كذلك تكمن أعظم المخاطر إذا مانجحوا فى فصل الدينى عن الدولة ، أن يحققوا الغاية العظمى لهم ، وهى المتمثلة فى فصل الدين عن العلم ، وقد أثبتنا من خلال منهجى الاستشراق والتبشير أنهم استخدموا العلم والتعلم فى المداس

والجامعات ـ وبخاصة الأجنبية فى البلاد ـ فى تغيير المفاهيم الثقافية والعقائدية والشرعية عند الشباب المسلم لوضعه تحت حجرى الرحى ـ التنصير والإلحاد .
وكما أكد فريرى على العلاقة الوطيدة بين السياسة والتعليم ، هنا أيضا يؤكد جارودى على العلاقة التى أردوا فصلها بين العلم والدين بقوله :" ترتبط مشكلات الإيمان والتعليم بعضها ببعض بشكل حميمى،ذلك أن كلا منهما تطرح قضية الغايات الأخيرة للإنسان،وينطبق هذا الأمر على كل حضارات العلم "[١٧٠].
فإذا كنت خارج ثقافة التزغيط ، ستدرلك بداهة أن كل الثقافات يرتبط بعضها بعضا برباط وثيق اسمه العلم والتعليم.
خامسا : لست فى مقام وعظ أو إرشاد ، وكأن الوعظ والإرشاد أصبح تهمة نتبرأ منها ، لكن الواقع يقول ، بل إن شئت الدقة يصرخ " كم هى سحيقة تلك الهوة التى تفصل بين الفكر والواقع " ، وإن الواقع ليقول : لقد باتت عقولنا نحن أبناء العالم الإسلامى والعربى مرتعا خصبا لكل ثقافت الهدم الغربأمريكية ، لقد بات عقولنا أكبر مزرعة حاضنة لفيروسات التخلف فى كل أنحاء المعمورة ، لقد غدت عقولنا قبورا لكل النفايات العلمية والثقافية ، علما بأن قبور النفايت الأرضية ، تخرج الأرض من الحياة تماما ، كذلك قبور العقول تخرج العقول خارج الخدمة البشرية ، وربما الحيوانية . فإن تساءلت عن عالم القلوب وسط هذا الجحيم الاستعمارى الثقافى ، تبين لك أنها بين بين ، بين غارقة فى العالم الآهواء والملذات ، عالم العشق والهو ، وبين الغارقة فى عالم من الآلام والأحزان ، تنتظر الغيث والمدد من رحيم رحمن .[١٧١]
سادسا : " إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال "[١٧٢]
ومن الآية إلى قول المفكر الأمريكى ـ نعوم تشومسكى :إن مسؤولية المثقف قول الحقيقة وكشف الأكاذيب . والحقيقة أن تشومسكى قد أخبرنا من هو المثقف ، بما يجعلنا نمسك القلم عن أقوالهم فى مغانم أوطاننا ، إذ جمهورهم من خرجى الأكاديمية العليا للتزغيط ، تعليما وتعلما ، ومن ثم نأخذ بالوسطية فى إنكار المنكر ، ولتكن الكلمة كلمة العلم : إن العلم هداية للأوطان الضائعة ، إن العلم رفعة للأوطان المنحطة ، إن العلم عزة وكرامة للأوطان الذليلة المهانة ، إن العلم بناء للأوطان

التى هدمت ، إن العلم ثروة لايفتقر حامله ، إن العلم إيمان بالله الواحد القهار ، إن العلم هو هو الحياة ، والمجموع ثقافة أمة تنتظر إشراقة شمس النهار .

سابعا : من يأخذ بما قلناه فى العلم مأخذ الجد ، فليأخذ بما قلناه فى الثقافة عين المأخذ، ومن تراءى له أن ما قلناه مجرد كلمات يملأ بها ، أوتسود بها صفحات الأوراق البيضاء ، فاعلم انها عين الثقافة التى بينها وبين العلم قطيعة ، عين ثقافة التزغيط التى يطيب لمحتكريها احتقار العلم والعلماء جملة وتفصيلا ، دون التورع عن إعلان ذلك على الملأ بلا خجل ، بلا حياء ، فمن يحمل درجة الماجستير والدكتوراه ، يتسول أمام عدسات الكاميرات عملا يقيم به أود نفسه ، يحفظ به ماء وجهه ، فيزجر ، يسب ، يهان ، يصفع ، يركل ، يضرب ، يسجن ، لالشيئ إلا لأنه تعلم فى وطن ليس فيه من الجهل بقدر مافيه من منهجية التجهيل العمد .

فعن أى غزو ثقافى نتحدث ، ونحن نقدم لهم شباب الأمة فريسة بلا ثمن عندما يرى أن نتيجة التعليم هى هذه الصورة الثقافية التى يتم تصديرها إليه ،بل وإلى العالم كله، فأى إيجابية فى تحصيل العلم نطالبه بها ، وبأى منطق وبأى حجة أدعوه لمجابهة الغزو الثقافى الوافد إليه من العالم الاستعمارى ، وأنا وفق سياسة ممنهجة أهتك ستره ، أظهر نقاط ضعفه وضعفى أمام المتربصين به ، وبنا .

ثامنا : كيف تجدد ثقافة الدين ويجدد الخطاب الدينى فى ظل منهج التزغيط العلمى والدينى ، كيف يتم تجديد الخطاب الدينى بواسطة علماء ودعاة ، هم عباد لمنهج التزغيط ، تملى عليهم الموضوعات، تلقن، تزغط ، تحفظ ، تخرج لجموع الشباب فى حوارات بلغة ركيكة مصطنعة فاقدة الروح ، فاقدة المصداقية ، فاقدة لأبسط قواعد الثقافة العلمية الحقيقية المؤثرة فى الواقع العلمى العالمى والمحلى ؛ ومن ثم إن هذا المنهج الذى يطالب بالتغيير ولايتغير ، يطالب بالتحديث وهو العدو الأول له، يسهم أكثر فأكثر فى اتساع الخرق على الراقع ، يسهم فى المزيد والمزيد من فقدان الثقة ، من ترسيخ ثقافة اللا انتماء ، يسهم فى حدة الشعوربالغربة الذاتية ، يدفع دفعا نحو البحث عن الآخر ، واقعا أوخيالا ، ليهرب إليه ، ليرتمى فى أحضانه، لينتمى إليه ، عقلا وقلبا ، روحا ووجدانا ؛ لا لشيء إلا لأننا قد تواطأنا عليه ، على أحلامه ، على مستقبله ، على عقله ، لقد سجناه خلف جدران الجهل والوهم ، نحن من سجناه ، نحن من زغطناه ، نحن من جعلنا عقله مقبرة نفايات العالم الغربأمريكى .

وأخيرا : عندما تتنامى ظاهرة الإرهاب ، وعندما تتنامى ظاهرة الإلحاد ، فليعلم الجميع ، خاصة من أسترعاهم الله على مصالح هذه الأمة ، عربية كانت أو إسلامية، أننا من غرس بذور هذا النبت الفاسد ، أننا من تعهدناه بالتربية والتعليم ، فكانت ثمار التربية والتعليم وفق منهجنا ومناهجنا ، ثمارا فاسدة ، لم نكتف وتكتف بفاسدها، بل عمت البلوى وعم الفساد فى مجتمعنا كله ، حتى بات قاب قوسين أو أدنى من الخروج عن السيطرة ، من الإنفجار العظيم الذى عند وقوعه سنهرع للبحث عن اسم له ، وعن أسبابه. من خلال بحوث جديدة.أيها السادة إنناعلى وشك توسونامى بشرى قوامه شباب الأمة الذى كره الطعام والإطعام القسرى المسموم .

والخلاصة : أضف بحثا جديداً فى مخاطرالغزو الثقافى إلى جملة الأبحاث التى كتبت ولم تقرأ ، أوقرأت ولم تفهم ، أوفهمت ولم تفعل . فإن تساءلت لماذا ، قلت لك بكل ألم لأجلى ولأجلك ، ولأجل الجميع ، لأجل المستقبل ليست هناك إرادة تغيير حقيقة ، لامن قبل الحكام ، ولا من قبل المحكومين . لقد استمرأنا حياة العبودية الطوعية لغير الله .

لقد كتب جان جاك رسويقول : ولد الإنسان حرا وهو أينما كان رازح فى القيود "

وفى كتاب العبودية المختارة يقول آخر : " يبدو أن المسير الحتمى للإنسان ألا يتمكن من أن يكون حرا أينما كان : يمضى الأمراء فى كل مكان نحو الاستبداد ، وتمضى الشعوب نحو العبودية "[١٧٣] .تلكم العبودية التى فرضت علينا فرضا عندما غضضنا الطرف عمدا عن ثقافة الإسلام ، متطلعيين بشغف جنونى إلى حضارة القارة العجوز وبلاد العم سام ، وهم من استعمرنا ، أرضا وبحرا وجوا ، عقلا وقلبا. وصدق جارودى عنما قال : " إن كل البلاد التى عرفت الحضارة الغربية عرفتها من خلال ثلاثة وجوه ، العسكرى والبائع والمبشر، الأول يعرض عليها أسلحته ، والثانى نموذجه الاقتصادى،والثالث دينه"(١٧٤)

الأول السلاح: ليقتل به بعضنا بعضا ،

والثانى الاقتصاد : لنشترى به الخيال والوهم،

والثالث الدين : لكى تستبدل الإسلام بالكفر والإيمان بالإلحاد.

مصادر البحث

١. شرح ابن عقيل ـ بهاء الدين عبد الله بن عقيل ـ قطاع المعاهد الأزهرية ـ ٢٠٠٠ـ جـ ١ـ ص٦
٢. سورة البقرة ـ من الآية / ٣١
٣. تفسير ابن كثير ـ دار الصابونى ـ جـ١ـ ص ٥١
٤. رسالة فى الحدود والرسوم ـ جابر بن حيان ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٦ـ ص ١٨٦،١٦١ـ ضمن كتاب المصطلح الفلسفى عند العرب
٥. سورة البقرة ـ من الآية / ٣٣
٦. مقدمة ابن خلدون ـ جـ ١ ـ ص٤٨٧
٧. سيكولوجية اللغة والمرض العقلى ـ د/ جمعة سيد يوسف ـ عالم المعرفة ـ الكويت ـ عدد١٤٥ لسنة١٩٩٠ ص٢٣
٨. إنجيل يوحنا ــ الإصحاح الأول ـ الآيات / ١ : ٤
٩. اللغة والتفسير والتواصل ـ د/ مصطفى ناصف ـ عالم المعرفة ـ الكويت ـ عدد١٩٣لسنة ١٩٩٥ـ ص ٣١
١٠. سورة يوسف ـ آية / ٢
١١. سورة الروم ـ آية / ٢٢
١٢. رواه الترمذى فى سننه ، فى كتاب الاستئذان والآداب ـ باب ما جاء فى تعليم السريانية ـ حديث رقم ٢٧١٥ـ جـ ٥ـ ص ٦٧ـ وقال حديث حسن صحيح
١٣. اللغات الأجنبية ـ تعليمها وتعلمها ـ د/ نايف خرما وعلى حجاج ـ عالم المعرفة ـ الكويت ـ عدد١٢٦لسنة١٩٨٨ـ ص ٧٢، ٧٣
١٤. اللغات الأجنبية ـ ص ٧٣، ٧٤
١٥. قاموس التنمية ـ دليل إلى المعرفة باعتبارها قوة ـ فلفجا نج ساكس ـ ترجمة/أحمد محمود ـ الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٩ ـ ص ٢١٣
١٦. الثقافة العربية وعصر العلومات ـ د/ نبيل على ـ عالم المعرفة ـ الكويت ـ عدد ٢٧٦لسنة ٢٠٠١ـ ص ٢٢٨
١٧. قاموس التنمية ـ ص ٢١٣، ٢١٤
١٨. قاموس التنمية ـ ص٢١٤
١٩. معاجم اللغة العربية ـ مادة / ثقف ـ مقياس اللغة ، القاموس المحيط ، لسان العرب،مختار الصحاح ، المصباح المنير،العجم الوجيز
٢٠. ملاحظات نحو تعريف الثقافة ـ ت . س . اليوت ـ ترجمة .د/ شكرى محمد عياد ـ الهيئة المصرية للكتاب ٢٠٠١ص٣٠
٢١. المعجم الفلسفى ـ مراد وهبة ـ الهيئة العامة للكتاب ٢٠١٦ـ ص ٢٥٨ ؛

٢٢. فكرة الثقافة تيرى إنجلتون ـ ترجمة / شوقى جلال ـ الهيئة العامة للكتاب ٢٠١٢ـ ص ١٤
٢٣. العولمة الفنية وإعادة تشكيل منظومة الثقافة الإسلامية ـ د / إمام رمضان إمام ـ دار محيسن ٢٠٠٤ـ ص ٣١
٢٤. الإنسان والثقافة ـ بافل جوريفيتش ـ ترجمة ونشر / دار الثقافة الجديدة ـ بدون تاريخ ـ ص١٧
٢٥. ملاحظات نحو تعريف الثقافة ـ مصدر سابق ـ ص ٢١
٢٦. الجغرافيا الثقافية ـ مايك كرانغ ـ ترجمة . د / سعيد منتاق ـ عالم المعرفة ـ الكويت عدد٣١٧لسنة ٢٠٠٥ـ ص ١٤
٢٧. نظرية فى الثقافة ـ تأليف م مجموعة من الكتاب ـ ترجمة. د/على سيد الصاوى ـ عالم المعرفة ـ الكويت ١٩٩٧عدد٢٢٣ـ ص ٣١
٢٨. المصدر السابق ـ ص ٣١
٢٩. المصدر السابق ـ ص ٣١
٣٠. فكرة الثقافة ـ تيرى إيجلتون ـ ترجمة/شوقى جلال ـ الهيئة العامة للكتاب٢٠١٢ـ ص٥٣
٣١. الثقافة والعولمة والنظام العلمى ـ أنطونى كينج ـ ترجمة / شهرت العالم وآخرون ـ الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٥ت ص ١٣٩
٣٢. ملاحظات حول تعريف الثقافة ـ سابق ـ ص ٢٩، ٣٠
٣٣. الانتخاب الثقافى ـ أجنر فوج ـ ترجمة / شوقى جلال ـ الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٧ـ ص٣٧٤، ٣٧٥
٣٤. أعداء الحوار ت مايك أنجلو ياكوبوتشى ـ ترجمة . د / عبد الفتاح حسن ـ الهيئة العامة للكتاب ٢٠١٠ـ ص ٧٩
٣٥. ملاحظات حول تعريف الثقافة ـ ص ٣٩
٣٦. الدراسات الثقافية ـ مقدمة نقدية ـ سايمون ديورنغ ـ ترجمة. د/ ممدوح عمران ـ عالم المعرفة ـ الكويت عدد٤٢٥ / ٢٠١٥ـ ص ٤٦
٣٧. معاجم اللغة ـ باب الغين ـ مقاييس اللغة،لسان العرب،المصباح المنير، مختار الصحاح
٣٨. المعجم الفلسفى ـ مراد وهبه ـ ص ٥٠٠
٣٩. الغزو الثقافى فى المجتمع العربى ـ دكتور / محمد سيد محمد ـ دار الفكر العربى ١٩٩٤ ـ ص ١٥
٤٠. المعجم الفلسفى ـ مراد وهبه ـ ص ٥٠
٤١. سورة الأنفال ـ من الآية / ٦٢، ٦٣
٤٢. حكام العالم الجدد ـ جون بيلجر ـ ترجمة / إسماعيل داود ـ الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٨ـ ص ٧٩
٤٣. المسيحيةوالحضارة الغربية ـ د/جورج شحاته ـ الهيئة العامة للكتاب ـ ٢٠١٤ـ ص ٣٤

٤٤. مختصر دراسة التاريخ ـ أرنولد توينبى ـ ترجمة / فؤاد شبل ـ الهيئة العامة للكتاب ٢٠١٥ ـ ٣٤٧ ؛ وراجع أيضا : الغرب والعالم ـ كافين رايلى ـ ترجمة .د / عبد الوهاب المسيرى وهدى حجازى ـ عالم المعرفة ـ الكويت عدد٩٠ لسنة ١٩٨٥ـ ص ١٩٥

٤٥. الغرب والعالم ـ ص ١٩٦

٤٦. الغرب والعالم ـ ص ١٩٦

٤٧. ثقافة أوروبا وبربريتها ـ إدنمار موران ـ ترجمة / محمد الهلالى ـ دار توبقال للنشر ـ المغرب ـ ط١ـ ٢٠٠٧ـ ص ٧

٤٨. أوروبا والتخلف فى إفريقيا . د/ والتر رودنى ـ ترجمة . د/ أحمد القصير ـ عالم العرفة ـ الكويت ـ عدد١٣٢لسنة ١٩٨٨ـ ص ٥٩

٤٩. قصف العقول ـ الدعاية للحرب منذ العالم القديم وحتى العصر النووى ـ فليب تايلور ـ ترجمة / سامى خشبة ـ عالم المعرفة ـ الكويت ـ عدد٢٥٦لسنة ٢٠٠٠ـ ١٠٤

٥٠. العرب والتحدى ـ د / محمد عمارة / عالم المعرفة ـ الكويت ـ عدد٢٩ لسنة ١٩٨٠ ـ ص ١٤٤

٥١. استراتيجية الاستعمار والتحرير ـ د / جمال حمدان ـ الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩ت ص ٣٧ ، ٣٨

٥٢. حوار الحضارات ـ روجيه جارودى ـ ترجمة . د/ عادل العوا ـ الهيئة العامة للكتاب ٢٠١٣ ـ ص ١٠٢ ، ١٠٣

٥٣. الأمير ـ نيقولا ميكافللى ـ ترجمة / محمد مختار ـ الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٠ـ ص ١٨و ٥٤ بتصرف

٥٤. الأمير ـ ص ٢٣

٥٥. تاريخ الفلسفة النظريات السياسية ـ د / مصطفى الخشاب ـ لجنة البيان العربى ١٩٥٣ـ ط١ ـ ص ٢٩٠، ٢٩١

٥٦. الأمير ـ ميكافيللى ـ ص ٢٣من المقدمة

٥٧. تاريخ الفلسفة والنظريات السياسية ـ ص ٢٩٤

٥٨. سورة العلق ـ الآيات / ١: ٤

٥٩. سورة البقرة ـ من الآية / ٣١

٦٠. اللغة والهوية ـ جون جوزيف ـ ترجمة .د / عبد النور خرافى ـ عالم المعرفة ـ الكويت عدد ٣٦٢لسنة ٢٠٠٧ ـ ص٣١

٦١. تاريخ الفلسفة الغربية ـ برتراند راسل ـ ترجمة / محمد فتحى الشنيطى ـ الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٧ـ جـ٣ ت ص ٣٩٥، ٣٩٦؛ وراجع : تاريخ الفلسفة الحديثة ـ يوسف كرم ـ دار القلم اللبنانى ـ ص ٤٠٩ ، ٤١٠

٦٢. تاريخ الفلسفة الغربية ـ راسل ـ ص ١٩٦
٦٣. دروس فى القرآن الكريم ـ الإمام محمد عبده ـ دار الهلال ـ ص ٩٨
٦٤. نظرية النسبية ـ ألبرت أينشتين ـ ترجمة . د / رمسيس شحاته ـ الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٠ـ ص ٢١ من القدمة
٦٥. المعلمون بناة ثقافة ـ باولوفريرى ـ ترجمة .د/ حامد عمار ـ الدار المصرية اللبنانية ٢٠٠٥ـ ص ٦٥
٦٦. التعليم من أجل الوعى الناقد ـ باولو فريرى ـترجمة .د/حامد عمارـ الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٨ ـص ٦٠
٦٧. التعليم من أجل الوعى ـص ٦١
٦٨. إنجيل توما وتعاليم يسوع السرية ـ هارلد يلوم و إيفليلن وايت ـ دار فون ومنشورات الأدهم ـ دبى ـ ص ٢٧ بون تاريخ
٦٩. المصدر السلبق ـ ص ١٠
٧٠. حوار الحضارات ـ روجيه جارودى ـ ص ٨
٧١. اللغة والتفسير والتواصل ـ ص١٦
٧٢. سورة الأعراف ـ من الآيات / ١٦ ، ١٧
٧٣. جريدة الوطن ـ الخميس ٣٠/ ٣ / ٢٠١٧
٧٤. نقلاعن الموقع الخليجى أونلاين بتارخ ٢٠١٦/٤/١٣،وراجع:المرشدالأمين فى تعليم البنات والبنين ـ د/حامدعماروصفاء أحمد ـ الهيئة العامة للكتاب ٢٠١٥ـ ص ١٠٦:١٠٣
٧٥. يذكر الدكتور حامد عمار أن اللغة الغالبة فى الجامعات الأجنبية فى مصر هى اللغة الإنجليزية ن مع وجود اللغات الأخرىن وتبقى اللغة وعاء حاويا للثقافة ،
٧٦. المستقبل ـ آل غور ـ ت . د/ عدنان جرجس ـ عالم المعرفة ـ الكويت ٢٠١٥ـ عدد٤٢٤ .ص٩٠ـ وفيها : ان الصين من أجل علوم الحياة ، استدعت ٨٠الف صينى من حاملى درجة الدكتوراه ، مع رصد ميزانية تقدر ١٠٠مليار دولار من أجل البحوث العلمية.
٧٧. فلاسفة أيقظوا العالم ـ د / مصطفى النشار ـ دار الثقافة ١٩٨٨ ـ ص ٢١٩ ، ٢٢٠ بتصرف،؛ ورجاع : تاريخ الفلسفة الحديثة ـ يوسف كرم ـ ص ٧٧
٧٨. التعليم من أجل الوعى ـ ص ٩٧
٧٩. المرشد الأمين ـ ص ١٤٣، ١٤٤
٨٠. السابق ـ ص ١٤٥
٨١. التعليم من أجل الوعى ـ ص ٨٩
٨٢. المعلمون بناة ثقافة ـ ص ٢٧
٨٣. تعليم المستقبل من التسلط إلى التحرر ـ د / حامد عمار ـ الهيئة العمة للكتاب ٢٠١٤ـ ص ٢٣٧

٨٤. أسس النظرية السياسية ـ ه .ر . جريفز ـ ترجمة / عبد الكريم أحمد ـ دار الفكر العربى ١٩٦١ـ ص ٢٠٩، ٢١٠ ، ٢١١
٨٥. المعجم الفلسفى ـ مراد وهبه ـ ص ٨٥
٨٦. أوروبا والتخلف فى إفريقيا ـ ص ٢٩٩
٨٧. المصدر السابق ـ ص ١٢٨
٨٨. ما العولمة ـ بول هيرست وجراهام طومبسون ـ ترجمة / فالج عبد الجبار ـ عالم العرفة ـ الكويت عدد ٢٧٣لسنة ٢٠٠١ـ ص ٤١
٨٩. جذور ـ أليكس هيلى ـ عبد الحميد الكاتب وعبد الحميد فهم ـ كتاب أخبار اليوم ـ عدد ١٥٧لسنة ١٩٧٩من المقدمة
٩٠. تاريخ الفكر الاقتصادى ـ جون كينيث ـ ترجمة / أحمد فؤاد بلبع ـ عالم المعرفة ـ الكويت عدد٢٦١لسنة ٢٠٠٠ـ ص ١٥
٩١. مقدمة ابن خلدون ـ جـ٢ ـ ص ٤٧٦
٩٢. السياسة ـ أرسطو ـ ترجمة / أحمد لطفى السيد ـ الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٨ ـ ص ٢٠٢
٩٣. المصدر السابق ـ ص ١٥٩
٩٤. جذور النصرانية ـ ص ١٥
٩٥. حكام العالم الجدد ـ ص ١٧٦
٩٦. كيف نصنع المستقبل ـ روجيه جارودى ـ ترجمة .د/ منى طلبة ـ دار الشروق ـ ط٢ ٢٠٠١ـ ص ٧٢
٩٧. حكام العالم الجدد ـ ص ١٧٢
٩٨. الجمهورية ـ أفلاطون ـ ترجمة / حنا خباز ـ المقتطف والمقطم ١٩٢٩ـ ص ٢٢٤، ٢٢٥بتصرف
٩٩. السياسة ـ أرسطو ـ ص ٣٢٠ ، ٣٢١بتصرف
١٠٠. كيف نصنع المستقبل ـ ص ١٣١
١٠١. خطاب إلى العقل العربى ـ دكتور / فؤاد زكريا ـ الهيئة العامة للكتاب ٢٠١٠ـ ص ٧٨
١٠٢. خطاب إلى العقل العربى ـ ص ٧٨و ٨٠ بتصرف
١٠٣. سورة النساء ـ آية / ٨٠
١٠٤. سورة النساء ـ آية / ٦٩
١٠٥. سورة لقمان ـ من الآية / ١٥
١٠٦. خطاب إلى العقل العربى ـ ص ٨١
١٠٧. أمريكا وصناعة الجوع ـ فرانسيس مورلاييه وآخرون ـ ترجمة .د/ حسن أبوبكر ـ دار الفكر للدراسات والنشر ـ ط١١٩٨٦ـ ص ١٩
١٠٨. تحولات الأمم ـ السيد يسين ـ الهيئة العامة للكتاب ٢٠١٠ ـ ص ٥٨

١٠٩. تحولات الأمم ـ ص ٥٦
١١٠. السيطرة الصامتة ـ ص ١٠
١١١. كيف نصنع المستقبل ـ ص ٨٦
١١٢. عولمة الفقر ـ ميشيل تشودوفيكسى ـ ترجمة/ محمد مستجير ـ الهيئة العامة للكتاب ٢٠١٣ـ ص ٢٦
١١٣. عولمة الفقر ـ ص ٦
١١٤. كيف نصنع المستقبل ـ ص ١١٧، ١١٨
١١٥. صناعة الجوع ـ فرانسيسمورلاييه وجزيف كولينز ـ ترجمة / أحمد حسان ـ عالم المعرفة ـ الكويت ١٩٨٣ـ عدد٦٤ـ ص٢٤٠
١١٦. عولمة الفقر ـ ص ٢٩، ٣٠
١١٧. أمريكا طليعة الانحطاط ـ روجيه جارودى ـ ترجمة / عمرو زهير ـ دار الشروق ـ ط١ ١٩٩٠ـ ص ١٢٠
١١٨. لماذا يزداد الأثرياء ثراء والفقراء فقرا ـ ماركك بوكانان ـ ترجمة ـ أحمد على بدوى ـ الهيئة العامة للكتاب ٢٠١٠ـ ص ٤٨
١١٩. المجتمع البشرى فى الأخلاق والسياسة ـ برتراند راسل ت ترجمة / عبد الكريم احمد ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦٠ ـ ١٤١
١٢٠. صراع الحضارات ـ ص٤٨
١٢١. محاضرات فى العقيدة والأخلاق ـ إمام رمضان إمام ـ دار الوثائق القومية ـ ٢٠١٤ ـ ص٣ من المقدمة
١٢٢. قنوات التلفاز النصرانية التبشيرية ـ مؤشر البحث جوجل
١٢٣. الغارة على العالم الإسلام ـ أ .ل شاتليه ـ ترجمة مساعد اليافى ومحب الدين الخطيب ـ منشورات العصر الحديث ـ القاهرة ١٣٩٠هـ ـ ص ١٦ ، ١٧
١٢٤. المصدر السابق ـ ص ١٧ ، ١٨ بتصرف
١٢٥. صراع الأصوليات ـ التطرف المسيحى ـ التطرف الإسلامى ـ والحداثة الأوروبية ـ هاينريش فيليهلم ـ ترجمة. د/ صلاح هلال ـ الهيئة العامة للكتاب ٢٠١٥ـ ص ٢٦
١٢٦. إنجيل مرقس ـ ١٢/ ١٧، وإنجيل لوقا ـ ٢٠/ ٢٥
١٢٧. الغارة على العالم الإسلامى ـ ص ٨٢
١٢٨. نقلا عن الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ـ محمد حسين ـ جـ ص ٢٠٤، ٢٠٦
١٢٩. الدين ووظائفه السياسية ـ سكوت دبليوهيبارد ـ ترجمة : د/ فاطمة نصر ـ الهيئة العامة ٢٠١٥ـ ص ٢٧٦،٢٧٥بتصرف
١٣٠. كيف نصنع المستقبل ـ جارودى ـ ص ١٧١
١٣١. سورة الشورى ـ آية / ١١

١٣٢. الإسلام والمسيحية - أليكسيى جورافسكى - ت: د/ خلف محمد - عالم المعرفة - الكويت - عدد٢١٥- ١٩٩٦-ص١٦١
١٣٣. المصدر السابق - ص ١٦١
١٣٤. الإسلام دين المستقبل - روجيه جارودى - ت عبد المجيد بارودى - دار الإيمان - بيروت - ص ١٧٤،١٧٥بدون تاريخ
١٣٥. الأصوليات المعاصرة - أسبابها ومظاهرها - روجيه جارودى - ترجمة : د/ خليل أحمد خليل - دار- عام ٢٠٠٠باريس - ص ٥٤بدون تاريخ
١٣٦. الجذور التاريخية لإرساليات التنصير الأجنبية فى مصر - دراسة وثائقية - دكتور/خالد محمد نعيم - المختار الإسلامى - ص ٢٢
١٣٧. الدين ووظائفه السياسية - ص ٢٧٦
١٣٨. مبادئ الفن - روبين جورج - ترجمة : د/ أحمد حمدى - الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠١٢- ص ٢٨، ٣٤
١٣٩. لسان العرب ت مادة فن ، ومختار الصحاح ، والمصباح المنير ، والمعجم الوجيز .
١٤٠. محاورة جورجياس أفلاطون - ترجمة / محمد حسن ظاظا - الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٠- ص ٣٣
١٤١. محاورة فايدراس - أفلاطون - ترجمة: د / أميرة حلمى مطر- دار المعارف - ص ٩٦بدون تاريخ
١٤٢. الجمهورية - أفلاطون - ص ٦٨
١٤٣. الجمهورية - ص ٧٣
١٤٤. فن المسرح - أوديت أصلان - ترجمة / سامية أحمد - الأنجلو المصرية ١٩٧٠- ص ٢٩،٣٠
١٤٥. فن المسرح - ص ٣٢
١٤٦. فن المسرح - ص ٣٣، ٣٤
١٤٧. الفن والمجتمع عبر التاريخ - أرنولدهاوزر - ترجمة : د/ فؤاد زكريا - الهيئة العامة للكتاب ٢٠١٥- جـ١ ،ص ١٧١، ١٧٢
١٤٨. الفن والمجتمع - ص ١٧٢
١٤٩. الثقافة فى عصر العوالم الثلاثة - مايكل دينينغ - ترجمة م اسامة الغزولى - عالم المعرفة - الكويت٢٠١٣- عدد٤٠١- ص ٢٠٦
١٥٠. جذور النصرانية بين العالمية والعولمة - إمام رمضان إمام - دارمحيسن - طـ٢- ٢٠٠٣- ص ٨، ٩ من المقدمة

١٥١. الدراسات الثقافية - سايمون ديورنغ - ترجمة : د/ ممدوح يوسف - عالم المعرفة - الكويت٢٠١٥- عدد٤٢٥ - ص٤٢
١٥٢. أنواع الفيلم الأمريكى - ستانلى جيه سولومون - ترجمة / مدحت محفوظ - الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٧- ص ١١
١٥٣. الثقافة فى عصر العوالم الثلاثة - ص ١٦
١٥٤. الدراسات الثقافية - ص ١٥٣
١٥٥. المصدر السابق - ص ١٨٧
١٥٦. عن النقد السينمائى الأمريكى - إدوارد مرى - ترجمة :جرجس الرشيدى - الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٣- ص ١٣
١٥٧. السينما الخيالية - بيتر نيكوللز - ترجمة : مدحت محفوظ - الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٦- ص ١١
١٥٨. الدراسات الثقافية - ص ١٥٥
١٥٩. المتلاعبون بالعقول - شيللر - ص ١١٤
١٦٠. مبادئ الفن - كولجرود ت ص ١٥٥، ١٦٦
١٦١. الفن والمجتمع عبر التاريخ - جـ١ - ص
١٦٢. الأطفال والأدمان التلفزيونى - مارى وين - ترجمة :عبد الفتاح صبحى - عالم المعرفة - الكويت ١٩٩٩- عدد٢٤٧- ص ٢٨
١٦٣. أمريكا طليعة الانحطاط - ص ١٠١
١٦٤. جمهورية أفلاطون - ص ٢٧٠
١٦٥. الإسلام بين العلم والمدنية - الإمام / محمد عبده - الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٣- ص ١٨٨، ١٨٩
١٦٦. العولمة الفنية وإعادة تشكيل منظومة الأخلاق الإسلامية - ص ١١٥٧
١٦٧. سورة الصف - أية / ٢،٣
١٦٨. سورة البقرة - آية / ١٧
١٦٩. مواجهة العولمة فى التعليم والثقافة - حامد عمار - ص ٨٩
١٧٠ . كيف نصنع المستقبل - جارودى - ص ٢٣٧
١٧١. العولة الفنية - ص ١٧٥
١٧٢. سورة الرعد - آية / ١١
١٧٣. مقالة العبودية الطوعية - إيتان دولابويسى - ترجمة / عبود كاسوحة - المنظمة العربية للترجمة - بيروت ٢٠٠٨- ص ٥٧
١٧٤- كيف نصنع المستقبل - ص ٢٤٠